قصص قصيرة .. وصور قلمية ..

مواسم مابعد العِشقْ..

(أنثى .. تعترف..)

أيمن عبد السميع حسن

دار المصر الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

لكل خلق الله.. أهدي هذا العمل المتواضع،،،

obeikandl.com

obeikandl.com

رشاد حليمة

(١)

في ذلك البيت الضيق ؛ يجمعنا أنا وأمي نعم .. بيتنا حجرة ، بالضبط حجرة ، تحت السلم في الحارة ، الكل يعرفونني باسم (رشاد حليمة)

(٢)

مازال المشهد ماثلاً في مخيلتي ..

أصبحت الآن أفكر في شيء سلبني ما كنت فيه من لحظات.. صوت رتيب يمزق الليل" طق.. طق...طق" قدم ثقيلة تقترب .. وتبتعد .. تجوب أرجاء الطرقة الطويلة بلا هدف .. تمتمت مع وحدتي ..

*نعم .. السجان يتجسس علي بالتأكيد .. هل يعتقد أنني أمارس العادة السرية؟!

بصقت علي الأرض القذرة دون أن امسح شاربي .. نعم يجئ الليل هنا بهمسات غريبة .. تذكرت معها صوت أمي الحنون .. " هيا يا رشاد نحضر صاجات " المخمر" من فرن المعلم "عوض قنديل"

عندما رن صدي الاسم الأخير في أذني .. شممت رائحة اختمار الأرض بالأجساد العفنة التي ترقد حولي .. وجاء صوت أمي نظيرة :

*انك لست الوحيد الذي ظلم في الدنيا يا ضنايا !

(٣)

كان الليل عملاق اسود .. تدور أغلاله بين نقيق الضفادع وحفيف سعف النخيل .. والهواء الشديد يلطم النافذة المكسورة .. ينبهني صوت المعلم (عوض) وأنا أدفن وجهي أمام " راكية الفحم"

*هات " الريموت" يا رشاد .. يا ولد نظيرة المحرومة من الطشة !

تسرب إلي أذني صوت المعلم " سيد بلال " صاحب مطحن البن ..

*يا معلم عوض لم أعد قادراً علي امتطاء زوجتي منذ شهر

قال المعلم " موريس " الترزي:

*ستمتطيها الليلة يا معلم سيد كما وعندنا المعلم عوض

وانفجروا جميعاً في الضحك..

٣-٢-١- . ثم بدأ مراسم الفيلم.. انبثق الضوء علي مؤخرتها البيضاء في المرآة .. عيناها متوهجتان نهمتان .. ازدادت كثافة التوهج .. كان قلبي العصفور يطير محلقاً.. تراقصت الأطياف وصوت انهمار المطر يضطرب ويزداد حده .. ثم تهدأ الرجفة .

أحسست بالغثيان ، وانتابتني رغبة في القئ، فقررت أن أعود ماشياً .. شجعتني النسائم الطرية العفية .. تذكرت بعض لقطات من الفيلم فصار الظلام موحشاً .. والريح الباردة تهز الأشجار الواقفة بعنف .. وعلي ضوء أعواد الثقاب تحسست الطريق حتى وصلت إلي بيتنا في الزقاق الضيق.

من هذا البعد .. يبدو دكان "الاسطي حسن" الحلاق – وسط هذا الظلام – بؤرة من النور الأصفر. فجوة في جدار ممتد .. جسم أدمي ينثني ثم يعيد قامته ويحرك يديه .. يقف أمام جسد لا يتحرك .

(٤)

تشاغلت بالهدوء .. فلم يعد صوت " كركرة " ماء الشيشة يقظاً .. تقرفصت بجوار برميل خشبي ضخم ، وبصري معلق بشاشة التلفزيون .. كان المعلم ورفاقه في ثبات عميق .. رحت انقل بصري بين النائمين وبين الحية البيضاء التي تكشف هضابها وتلالها وخنادقها .. يزداد فوران العاصفة .. كانت يدي تختفي في الظلمة .. حملقت بشدة وتصلبت أوتاررقبتي واستسلمت للرجفة التي أصابتني .. وبعد لحظات .. تمددت بجوار النائمين .. بدت المخلوقات جميعاً سواء .. الجميلات والقبيحات .. ثم تلاشت كل الأسرار!

وكان المطريهطل خارج (الخص) فارتعدت فرائصي من الخوف فدفنت وجهي في الغطاء .

(٥)

أقبل الليل كعادته .. كانت الأعواد الجافة في الأرض القاحلة تهتزوترتعد .. وبعد ساعة أو نحوها .. اجتمعت (قعدة الخص) مبكراً .. وانفضت مبكراً .. وكان المعلم " عوض قنديل" يرفل في عباءته الفضفاضة هرش في مضض بين فخذيه صال الغول وجال .. كان يعزف لحناً همجياً " وقبل أن افتح فمي " أقترب مني .. اقتراب كثير .. اشتدت ضربات الطبول والدفوف .. وعوي في كالمعتوه انبعثت منه رائحة تبغ زاعق ..

*اقلع هدومك !

صرخت في هلع .. ارتعشت أطرافي .. كانت كلمات علي لساني تهرول .. تتعثر.. تلهث .. أحسست بمئات الخيل تدوسني تحت سنابكها .. تتركني جرحاً ..

*أنت عايز أيه؟! .... كررتها مرات ومرات .

اختنق صوتي .. كنت أحس بحدقتي عيني تؤلماني وبساقاي يرتعشان .

هوي بمعوله يحفرلحداً .. ارقد فيه .. تعالت الأصوات وتضخمت لحظة الدفن.. توسلت إليه أن يرحمني دون جدوى .. كان صوتي مذبوحاً ضاق عن احتواء الكلمات .. لن يكن عقلي مستعداً مطلقاً لاستيعاب تلك الحقيقة المرة .. فلم أعد أري شيئاً واضح المعالم .. تكاثفت بداخلي ذرات القهرثم تقلص جسدي في يأس وتمزقت خلاياه

.. وبعد لحظات تمدد المجرم وكأنه جيفة تبخرت منها الحياة .. اتسعت دائرة العين .. ثم أطلقت قدمي للرياح .. أجرجر خلفي غباراً موتُوراً .. وبدأت الرحلة شاقة وعسيرة إلي بلد بعيدة.. كل شيء فيها صامت إلا صوت (عسكري الدورية) يجوب في الطرقات بلا هدف .. وكأنه يتباهى في خطواته كزورق في بحر هادئ .. تسيطر عليه أحلام السطوة والجبروت

*هاااااااااه .. هاااااااااه ..مين هناك ؟!

(٦)

عبر النافذة الزجاجية المتسخة..

عاد الصفاء إلي الشمس فاستدار القرص ، وغطت الزرقة الشفافة وجه السماء

*ألا تذهب للمخبز يا عبد اللاه ؟

لم تكن لدي الرغبة في العمل بعد الذي حدث ، أو أي شيء آخر .. كنت أنظر إلي الأشياء كما لو كنت أراها لأول مرة .. لقد تعلمت الخجل من نفسي ونواقصي .. تذكرت بسمة أمي ، وهي تحنو علي .. بدأت اخلع ملابسي وارتدي منامتي المهلهلة .. تحشرج صوتي في حلقي:

*لن اذهب .. تعبان .. عايز أنام .

*المعلم يزعل يا ضنايا.

*يغور في ستين داهية !

ودفنت رأسي بين الوسادة واللحاف فأتضح لي أن حزني لا يزال حارقاً.

(٧)

كنت أهرب من نفسي .. أخرج إلي الشوارع أخفي همومي وراء عواميد الإنارة فأغرق مثل مخبول مطارد في زحمة الحانات.. ومازالت السنة اللهب تتصاعد في جوفي .. والناس في حركة مستمرة.. يروحون ويغدون في محاولة لإطفاء اللهب بداخلي....

وتمر سنوات وسنوات .....

سألتني زوجتي وهي ترنو إلي بإشفاق:

*لماذا لا تأكل يا سي رشاد؟!

نظرت إليها وقد تسربت الحياة من وجهي في صمت

دخلت غرفتي .. اقتربت من المرآة .. اتسعت دائرة العين ، دون أن الفظ كلمة واحدة ،رحت أندس تحت الغطاء .. أضع طرفه الاعلي تحت كتفي .. اختفي تحته .. انعزل عن العالم ، في هذه اللحظة .. تمنيت أن أسافر بمفردي بعيداً .. وهكذا وقعت فريسة السخونة والمرض،وأضربت عن الطعام ، وخارت قوتي .. لم أروجهي سنوات طويلة .. وعندما دققت النظر فيه .. كنت أتمني الموت - واره بأشكال عديدة - ولكنه لم يكن يأتي .

(٨)

تحرك بي التاكسي وأنا لا ادري إلي أين هو ذاهب بي نطقت شفتاي في هدوء ..

*خان جعفر من فضلك.

هبطت من التاكسي ورحت امشي بلا هُدي، تردت طويلاً قبل شراء السكين .. أخذت اقلبها في يدي بطريقة آلية .. كان الراديو من خلفي يصدر(مارشات عسكرية) .. تحول السكين إلي (سُنكي) أراني انهال علي (عوض قنديل) طعنته عشرات الطعنات، ثم بترت (عضوه) وألقمته في فمه

تنبهت من غفلتي علي إيقاعات صاجات بائع العرقسوس كان صوته يملا المكان " اشرب خمير"

ثم عادت أصوات تتناهي إلي مسمعي كأنها أجراس الخلاص تنفذ بداخلي عبر مسارات متفرقة .

فارتعشت أهدابي – التي أصابها الشيب – خلف النظارة الشمسية .. هذا هو الليل ، صديق المجرم والشاعر والرجل الوحيد.

تسكعت .. تعبت من التجوال .. أنصت بكل حواسي لهمس الشيطان .. انتفضت مذعوراً :

*سأنتقم !

وهنا داخلني الخوف ، وارتعدت مفاصلي ، فشهقت شهقات متقطعة لا إرادية.

(٩)

قُدرلي أن أعيد حياتي من جديد .. أُخلصها من أدرانها سأقف عند النقطة التي مست كبريائي .. اقتربت من سرايا (عوض قنديل) المرابطة في مصر الجديدة .. كانت الشمس لحظتها في اقرب الأوضاع إلي الأبنية الواطئة .. بخطوات مهرولة .. وقفت أمام البوابة العملاقة دققت في اللوحة المعدنية الصدئة كان مدون عليها (فيلا الحاج عوض قنديل) .. رجل أعمال .. دائماً تظهر إدارة البشر وقوتهم في جو التحدي .. تمر ساعات وأنا أتردد في الدخول .. حتى زحف الليل علي المكان وبدت كأنها البركان .. وضعت إصبعي المرتعش علي الجرس فتح لي خادم اسود .. سألته عن(عوض قنديل) رد بكلمات غير مرتبة .. فهمت أن (عوض قنديل) لازال نائماً.. الشيء الذي يسري في فمي مر غريب.. هرعت إلي الطابق العلوي في غفلة من الخادم عند ما رن جرس التليفون بالمكتب .

لمحت ساعة الحائط – الموجودة أعلي الدرابزين – تشير إلي العاشرة .

أخرجت السكينة في هدوء .. تسللت .. تلفت حولي .. ودخلت بعد بحث للغرفة التي يرقد فيها (عوض قنديل) ..هالتني المفاجأة وأنا أراه غارقاً في بحرٍ من الدم ..كل ما حولي غريب يومئ بالضياع

*غير معقول !!

سرى الخدر في كياني وبدأ النور يتغلغل شيئاً فشيئاً يتسلل عبر الظلمة بداخلي فيطردها .. تمتمت :

*من سبقني وانتقم منه؟!

وهنالك يبدو النخيل الذي يلف السرايا يلتقي بالأفق مشرئب العنق يتمايل طرباً معي .

وكأنما سُر لمقتل (عوض قنديل).. هممت أن انهض في إيقاعات سريعة مضطربة .. وسط هذا الهلع .. انخلع فكري وتجمد .

(١٠)

لا أدري لم لا ينته العالم الآن ، لا حاجة لي أن أعيش بعد اللحظة.. فقد هدأت نفسي وتسرب ضوء القمر بداخلي من خلال تلك السحب العنيدة .. لمحتها من خلف شيش النافذة وأنا ارقب الشارع أمام الفيلا .. كان خالياً .. إلا من قليل لا يذكر من طوارق الليل .. سيارات مخمورين .. كلاب ضالة .. صوت عسكري الدورية الجهوري ..

*هاااااااااه ....!

كان صدري يعلو ويهبط في تتابع واستبد بي الانفعال عندما رأيت شخوصاً عده تتراقص أمامي في تداخل .. شعرت بالاختناق .. فأوهمت نفسي إنني سأستمتع وأنا أري هذا (الجلف) وعضوه المبتور يتدلى من فمه ..

وقبل أن استمتع بالمنظر.. دخل الخادم الأسود في يده شيء لم أعييه .. فأطلق صرخات مدوية فما كان مني إلا الهرب .. رحت ألوذ بأحد أركان الحديقة الواسعة .. كنت اسمع جلبة الخدم التي تبحث عني وتعالت أصوات الكلاب .. ترتفع فوهات البنادق بالطلقات .. هرباً كنت أجول بعيني وسط أشباح التلال المتراصة ..الجاثمة.. والأرض البعيدة التي يلفها ظلام مجهول ..عندها وصلت إلي طريق الأمان .. احتبست الكلمات في حلقي .. بينما عيناي تتألقان بدموع غزيرة .. أحسست براسي يدور في محاولة لتعويض ما فاتني من وقت.. كانت أقدامي تركض بشدة .. لم أكن خائفا من النهاية بل اجتاحتني ثقة غريبة .. ثم تسلل إلي روحي نسمات رضا مفتقد... شعرت بأياد كثيرة ..اعترتني رجفة مفاجأة ..تقبض علي كل أنحائي .. تزاحمت حولي الأصوات وعلت ضربات قلبي .. فمسحت وجهي براحتي ..

وسُلمت – رغماً عني – لرجال الشرطة ..

(١١)

ارتفع صوت وكيل النيابة في انزعاج :

*لماذا قتلت (عوض قنديل) ؟!

* .....

*الصمت لن يفيدك !

ثم ضرب بقبضه علي المكتب

(١٢)

كانت النباتات الشيطانية القابعة في نهاية الطرقة الخرسانية ترتعش علي صوت (البروجي) فوق مبني السجن .. تيقظت من غفلتي .. وأخذ قلبي يخفق .. رئتي لازالت تمارس وظيفتها في نقل الحياة لي ، كان حبل المشنقة يعلق بمخيلتي كل لحظة .....

(١٣)

جو الزنزانة كئيبا .. رائحة نفاذة غير محددة.. أخذت أتحسس جسدي .. نزعت بعض الشعيرات من إبطي .. تفحصتها .. نزعت أخري .. وأخري.. ، كنت أتلذذ بالألم ..

* أنا أتألم.. إذا أنا حي ! .. نعم لا زلت حياً .. لم ينفذ حكم الإعدام بعد.

(طق ..طق ..طق) ما بال الوقت يمر سريعاً والليل يركض بلا هوادة.. تسرب إلي معدتي إحساس بالجوع .. كدتُ أن أنفجر من هذا الإحساس .. ابتسمت في مرارة .. فأن اللقمة التي تنزل معدتي الآن .. لن يمهلها عشماوي أن تخرج من دبري ..

(طق ..طق ..طق) .. طاوعت نفسي وأخذت بعض اللقيمات .. وجدتها بلا طعم .. واستقر في أنفي رائحة البول .. لا أريد أن أموت بموعد محدد..

لكنهم حددوه.. بعد ساعة ونصف .

أشعر بالحارس وقد صار خلف باب الزنزانة .

(١٤)

تحرك مزلاج باب العنبر .. فدخل النور في صمت .. لمحت ثُلة من البشر تقف أمامي .. يتوسطهم شيخُ معمم ، والي جواره مأمور السجن ، فانتفضت خلايا جسدي كان وجهي جامد الملامح .. لم أطق الانتظار لحظة واحدة .

(١٥)

راح الرجل يلتهم سندوتشات الكبده أمام العربة المتحركة .. تأمل – بعد أن فرغ من الأكل – ورقة (الجرنال) التي أمامه .. قرأها بصوت مسموع:

*محكوم عليه بالإعدام .. يموت من الخوف .. ثم تظهر برأته !

كور الرجل ورقة(الجرنال) ثم ألقاها في سلة المهملات .. وانتهت الصورة .. كانت الشمس قد برصت وارتعشت وبدأت البقع البيضاء تتناثر علي صفحة الكون من جديد .

obeikandl.com

obeikandl.com

فذلكة تحت الجدران

(1)

اندلقت الألوان فوق الكواليس ، سألت عنها " يا سادة .. سحنتها خمرية تلاشت كما ضوء المحاق حاولت أن ارتق جراحي .. مللت التكرار والمحاولة ، عدت في الهزيع الأخير من الليل ،كانت عيناي تتابع السحب المتحركة في تثاقل حزين ، أحسست بأول شعاعات الفجر الندي يتسلل إلي رأسي ، فتشت عنها في سراديب الجبل ، وفي الآنية المهجورة ، لم أجد إلا عضو أبي المبتور ، كان ينز سائلاً شفافاً ، وعند هذه اللحظة صاحت أمعائي بظرط متكرر .. فقررت العودة ،وحزمت أمتعتي ، وأطلت النظر لبرج (ايفل)،ودعته ، وانطلق صوت الطائرة .. حلقت ،فلمحت حلمي الذي راودني في المساءات المثيرة ، يلفظني في ظلمة السحاب كأني جمجمتي تحترق ، نعم .. قبل لقياها كنت أعيش علي خط المنتصف لا أحيد عنه ، لا ابكي بشدة ، ولا أضحك بشدة ، إنني أبدو كمن يحاول الضحك علي نفسه ، كانت بداية تعارفنا في المكتبة التابعة للجامعة عندما جلست أمامها ، وتلاقت العيون، شعرت أنني أمام (غجرية الموالد) ..كانت تحمل الحب ، والعقل ، وفوران الجسد ، ورعشته في آن واحد .. شعرها المفكوك ينز منه رائحة الفجور .. قالت بصوت هزني ..

* أنت يا دكتور جمال أسمر، تشبه المحاربين القدماء العظماء ..

فعلت كل ما طلبت مني دون مناقشة ، كانت همساتها تراودني ، ولساني يردد

* باميلا ... باميلا ..

تنبهت من غفوتي علي صوت هبوط الطائرة ..غسلت عيني بكلمة (مطار القاهرة الدولي)، وابتسمت.

(2)

كانت الشمس تنزف صمتها ، بلا هودة ، التقطت أنفي رائحة البخور والبن المحمص اليوم أضحي عارياً ، الدروب تعبانية ، وعيون تترقب .. (من هذا الشاب السمهري؟) ، تتعالي أصوات المارة .. ويتضاءل عواء السيارات ، تحت نداءات الباعة الجائلين ،كانت تأتي بالمهارة وعفو الخاطر، لها جاذبية تطرب الآذان ، وطبقات صوته تتراوح بين (السيكا)و(النهاوند)

* بطيخ محلي .. صلي .. وعلي النبي صلي !!

* ورور يا جرجير..

* شفا يالمون ..

في الخن الصغير من الحارة ، وقفت متأملاً، التقت عيناي في شبق بهفهات ألوان ايشاربات ، أحمر ، أصفر ، أزرق ، غسلت روحي بكهرمان السبح المعلق .. احتوتني الزحمة بين حناياها ، وتفصد العرق من جبهتي لا زال المكان يحمل عبق الدفء .. والطمي .. والتاريخ .. سادني ارتباك وأنا أمسك بالبوابة الحديدية الصدئة ، دخلت البيت .. كانت سحارته قديمة ، عامرة بالظلام ، وصعدت الدرج الخشبي ، فسكن في أذني صدي يدعوني باسمي: (دكتور جمال .. دكتور جمال).. استدرت فلم أجد أحداً طرقت الباب ، كانت آية قرآنية بخط كوفي موضوعة في الشراعة الحديد.. تلوتها ..

يدركني الحلم عندما لمحتها ، كان وجهها به نتوءات مترهلة ، انعقد لساني وهي تحملق في ، كانت عيناها خلف النظارة – الطبية - تجحظ ، ووجهها يبتسم وراحت تضمني إلي صدرها ، ترقرقت الدموع بين أهدابها الناحلة :

* حمد الله علي سلامتك يا غالي .. اسم النبي حارسك وصاينك ومقام السيدة لأوزع أنجر نابت علي غلابة شارع (سيدي العتريس) بمناسبة عودتك بالسلامة ..

دفنت راسي في حضنها ، حدثتها بصوت ضعيف ، مخرجا ما بداخلي من أسرار، بكيت من شدة نشوتي :

* وحشتنني يا جدة يامنة !!

(3)

جلست أعاين المكان ، لازالت صورة جدي (الشيخ حسن) تقبع في برواز مهترئ ، وشريط أسود يشطر طرفه العلوي ، كانت جدتي تمارس طقوس ذبح بطة (شاشار) ، اقتربت من (الكومودينو) القديم ، جثت الكتب عليه بلا حراك ، ابن عربي ، السهروردي ، تذكرة دواء الانطاكي ، نفضت عنها ما علق بها من تراب ، ودنوت من الشباك الموارب ، فتحت ضلفه.

الشارع يختنق من المارة ، وأطفال يلتفون حول الحنفية العمومية ، يلعبون(نطة الإنكليز) .. ابتسمت دون أن تتغير ملامح وجهي ، وضعت نظارتي ، ودققت في هيئة المآذن السامقة التي انغرست في بطن السماء نبتت الأحداث في ذاكرتي ، وتموجت صورتها أمام ظلي المرسوم علي الجدران بدقة .. وقررت تنفيذها علي الفور .

(4)

حانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، تعملقت الحرارة في جسدينا ، كنا نتدثر ، بمعطف واحد ، نتقافز بين البارات المزدحمة ، تأبطت ذارعي أخبرتني بأنها تمارس الرسم أحياناً ، وتعشق روايات نجيب محفوظ المترجمة ، جلسنا علي الطاولة الحديدية الممدودة علي النهر ، نأكل ونتحدث ، كانت تشفق في حديثها علي جارها(السبعيني) الذي يعمل فرد نظافة في ملهي ليلي ، وحكت لي عن مأساته مع زوجته الشابة اللعوب التي تتلذذ بضربه كل ليلة بالسوط علي مؤخرته المنكمشة ، وهو مقيد علي السرير ، تُخرجه عارياً في الشارع ، وتطارده هي بدورها بكاميرا فيديو ، تلاحقه ، لتصوير لقطات نادرة .. مريضة هي، كان العجوز يثير الشفقة ويده العجوز المرتعشة تستر عورته .. تنفست الصعداء .. صمتت حبيبتي عن سرد الحكاية عندما لمحت التأثر قد ظهر علي وجهي ، فشدتني من ذراعي .. سرنا بمحاذاة النهر.. كان الليل يحتضر ، والمروج الخضراء قد غطاها الجليد ، همست لي باللغة العربية المكسرة ..(حبيبي جمال، أنت تشبه سي السيد، في لحظات ضعفه، يبكي قلبه ووجهه ثابت)

جرينا ، تراشقنا بكرات الثلج ، كنت أحبو بين القمة والقاع بحثاً عنها ، فتلاشت كل خلايا الجسد ، واستهلكنا كل السُبل معاً ، وتحت كل أضواء باريس الساهرة ، رويداً خمدت سقسقة العصافير، وتصاعدت رائحة العطر، فوق البنايات المنخفضة صوب النهر ، تتحدي اليخوت والزوارق الراسية في خنوع ، واستجبنا لشهية النوم

العميق دون أن نشعر ببرودة الجو.

(5)

ومع أذان الظهر، نهضت أغسل يدي ، تناولنا وجبة دسمة ، تبادلنا الحديث علي المائدة ، تمتد يد جدتي إلي صندوقٍ قديم ، مصنوع من الخشب ، قد مضغ الزمن صفوة لونه ، كانت (غوايش) زَواجها تحمل زهوة الذهب ، تمتمت بفم به أطلال أسنان:

* كان جدك (الشيخ حسن) يحبني بدرجة لا تتخيلها لا أتذكر يوماً أنه كشر في وجهي ، ولو بالمداعبة ..

استأذنت العجوز ، لتصلي الظهر في غرفتها .. مددت جسدي المنهك بين(فنوغراف) قديم وبين حقيبتي (السامسونيت) أحدقت بينهما ، عادت صورتها تعلق في خيالي .. تسألني الإياب .

(6)

أشعر دائما بالغباء ، لأنني انجرفت في حب صديقتي " باميلا " .. لم أضع لي منهجاً واضحاً معها، أو دستوراً يحد من علاقتي بها طيلة سنة كاملة بالجامعة ، ردت الخادمة السوداء بصوت غانية ، عندما سألت عنها في بيت الطالبات :

* سيدتي باميلا سافرت مع صديقا الروسي إلي الجنوب ..

تأملتها طويلاً ، أحاول البحث عنها في مخالب ذاكرتي .. ثم غرقت في اللاوعي

(7)

استيقظت علي صوت جدتي يامنة ، ويدها تضع البراد علي (السبرتاية) – "الحياه – ياولدي رغم أنها تافهة .. الكل يجري عشان يعيشها ".. قالتها بحزن .. ضحكت وأنا أربت علي كتفها .. قلت :

* صرت حكيمة عصرك يا جدة ؟

أخذت كلامي بمحمل الجد ، ردت ويدها تقبض علي البراد :

* النواح يا ضنيا يعلم البكاء !

هزني كلامها ، راحت تسرد الكلمات وهي تصب قدح الشاي ، طافت في عالم بعيد ، بينت لي وهي آسفة مدي تقصيرها في حق زوجها (الشيخ حسن) كان يصحبني كل يوم جمعة ، نركب (السوارس) ونشرب (العرقسوس) ، ونتسلى (بالفشار) ونحن نشاهد (المحمل)، وسط هرج الناس ، تراه أحياناً كالنائم مما يراه من تجهمي ، وحالتي المزاجية التي كنت أعيشها بمحض إرادتي حتى شارفت الأربعين .. ارتشفت بقايا قدح الشاي ونحيته جانباً ..

(8)

شاع في الشارع أن (الشيخ حسن) (مريوح)، كنت أراه شجرة صبار تزداد صبراً ، وليلتها كان والدك – رحمه الله – مجنداً باليمن وأنت قطعة لحم في بطن أمك .. كان الغراب ينعق ، ويحلق فوق أشجار (السرو) غادر الدنيا كمداً عندما سمع خبر استشهاد والدك ، ذهب في هدوء مطبق وضاعت رفاته بين شواهد القبور وبين النباتات الشيطانية ، زرته في ليلة (الأربعين) ، تغلب الوله علي عندما سمعته يهمس في أذني:

* الحياة يا غالية رغم أنها تافهة .. الكل يجري فيها كالكلاب المسعورة ؛ ليعيشها

قالها بشيء من الفرح .. وقفت وأنا أفرق علي روحه قرص (مخمر القرافة) :

* ليه نكلضم في وجه الحياة ، ونعشق ذكراها ؟!

لم أحاول أن أحفر هذا الحوار في ذهني ، لقد كان هائماً بمحبوبته الهاربة .. كانت تجري بين أشجار الكروم ، وخلفها صديقها ذو البشرة الصفراء ،تمتمت وأنا أقلب بصري بين أوراق تعيني بالجامعة ، وبين وجه جدتي الذي بهت ، وصارت شائهة الملامح ..

* أرادت هنا أن تعيش وقتها ، فخسرت ماضيها وحاضرها ، وأرادت هناك أن تعيش وقتها ، فخسرت أنا الماضي ، واخشي علي حاضري

obeikandl.com

الغرباء

قريتنا صغيرة (تتبع المركز) يمر وسطها شريط القطار تتكون من عدة أُسر كبيرة ، تتداخل فيما بينها بالمصاهرة ، بها عدة أماكن تعد من معالمها الأساسية: المسجد والبوسطة والسلاحليك الرابطة قبلي دوار العمدة (حسان الشيمى).. كان أهل القرية في ذلك الوقت (١٩٥٣م) يعتمدون على الزراعة وتربية النحل وصناعة الطوب الأخضر.

مع غروب الشمس..

كان هنالك طابور صغير من الفلاحين والمواشي تخترق المدق الترابي ، وتعبر شريط القطار بجوار كشك المحطة المتهالك المغبر.. وكان يبدو علي فترات متباعدة بيوت واطئة متراكمة.. متزاحمة .. متلاصقة ،فوق سطوحها أكوام من حطب القطن ودريس البرسيم الأشيب كأنها قبيلة من الغجر.

جدي ((الشيخ عمران)) يجمعنا حول (منقد) قوالح الذرة ، يشهق براد الشاي فيرتفع غطاءه ..عرق يتصبب من مسامي الوجوه ..أنا وأبي وأخي محمود وآخى عثمان وعمتي نجية وزوجها مجاهد ،كنا نصغي باهتمام – كعادتنا دون مقاطعة - لحكايات جدي .. احتوانا المكان المعتم .. كنا نرتشف الشاي واحد بعد الآخر في تلذذ .. نظراتي الواهنة ترقب – من كوة بالجدار المهدم – تمايل النخيل مع نسمة الليل الطرية .

عمتي نجية

قصيرة القامة .. متوسطة الجمال ..في العقد الرابع من عمرها ..فيها سمار أبي ..صوتها يشبه صوت الرجال ،كان وجودها قائم بيننا علي الدوام ..دون أن تزورنا فهي تجلس أمام دارها الواقعة ناحية الحارة السد.. تسمعها من دارنا لا تكف عن الصياح مع زوجها (مجاهد) وأولادها الستة .. كان صوتها المبحوح لا يعني بالضرورة

عراكاً يستدعي إغاثتهما ..بما تزعق في جارتها حسنية بنت علي الطحان التي استلفت منها شيئاً (يد الهاون) أو (مفراك البامية).. أوما شابه ذلك دون أن تعيده بسرعة ..

(2)

كانت الشمس تتألق وهي تترنح بكل الألوان .. تتصدر كل الإشارات بلا توقف ، يجلس جدي الشيخ عمران في (المجاز) تلمحه معمما بعمامة كبيرة بلون صوف الغنم ،يتدلى طرف شالها حتى صدره .. وزبيبة الصلاة تتوسط رأسه كثمرة التين .. في كل مرة يرتفع صرير باب الحوش البراني فتدخل عمتي (نجية) تقترب من جدي تقبل يده وخلفها زوجها (مجاهد) .. كان جدي منهمكا في قراءة

(دلائل الخيرات) .. ركنه علي صوان بجانبه وراح يحدث (مجاهد) الذي كان يلبس (زعبوطاً) كاكي يكشف عن صدره.

*كيفك يا ولدي يا مجاهد ؟!

* الحمد لله يا أبا الحاج !

كنا نسمع صوت الاسطي (عوض) الحلاق يخاطب حمارته السوداء وهي تلقم بعض (العفش) المتناثر علي الطريق (هيس .. هيس .. يا حمارة البين)

وانبثق شعاع من الضوء فجأة مخترقاً طيات الظل في خط مائل .. يخلع عثمان لباسه خلف

(السباته الورانية) وفمه يهرج مع عوض الحلاق ..

* أبوك يا عوض ؟

* أشمعني يا غتت (قالها بتهكم علي أخي عثمان)

* نزل زلعة المش بلعته الدودة.

ضحكنا جميعاً وضحك أبي ويده تهتز بعلبة مستطيلة حديدية صدئة ، وأخذ يلف بورقة (البفرة) فرط الدخان ويلصقها بلسانه .. وضحك جدي ، لم أعهده يضحك بهذه الصورة التي أبرزت نواجزه .. راح عوض يطقطق بالمقص فوق رأس

جدي التي اشتعلت شيباً

*اليومين اللي فاتوا .. الطوارق شاده حيلها بحري وهاتك يا قبض علي مخاليق ربنا يا جماعة .

قال عثمان ويده تسحب (خطام) الجاموسة للخارج

*كله كلام و لا شيء من ده كله حصل .. (أراد أن يحرق دم عوض) نطق عوض بحرقة :

*علي الطلاق بالتلاته ..الوله علي ابوسته كاتب السلاحليك وتلفون العمدة (حسان) عمره ما يكدب ده بيصلي فرض بفرض وجول يا صبح ياسي عثمان يا مفتح .

نطق مجاهد ويده تهرش قفاه ..

*يا صبح .. ثم انطلق بضحكته الصبيانية (هوهوهوهي) !!!

قام جدي من جلسته .. ثم نفض جلبابه وقال:

*والله البلد عماله بتغلي يا جماعة وربنا يسترويطلعنا منها علي خير.

أمنت عمتي نجية علي كلام جدي وذراعيها ترفع (طن البوص) علي رأسها ((آمين))

هرش أبي مؤخرة رأسه .. ثم زعق في أنا وأخي إبراهيم كمن أفاق من غفوة :

*فزوا يا كسالي .. الشمس بقيت في قلب السماء - ورانا دودة القطن هتطلعنا علي (فشوش)

السنة دي باين .. رفسني محمود بقدمه الصغيرة :

*يلا يا عم إبراهيم خلينا نحصل الأنفار..

قال مجاهد

*وأنا وراكم (فركة كعب)!

(3)

كانت الشمس تصب حممها علي الدنيا ، عندما أقترب عثمان من (بيوت العرب) هي أول ما تقع عليه العين في مدخل القرية – وراح يحسس الطريق بجوار صوامع الغلال .. همس عثمان ويده تقبض علي (بلغته) الملوثة بروث الماشية :

*رحمة .. رحمة .. أنت يا بنت المعفن .. افتحي !

تسمع صوتها منطفئا .. أحست بضيق

*نعمين ياسي عثمان !

خرجت من خلف (السباته) البوص فتاة عشرينية سمراء .. حسناء .. يتوسط ذقنها غمازة تزيد من جمالها ، اليد مزدانة بعدد من الخواتم ، وفي القدمين خلخال من الفضة .. والوجه يتوهج بالرغبة.

أقترب منها عثمان ويده القوية – المعروقة- تقبض علي ذراعها الذي اكتسي باللحم

*جمعه بحالها يا بنت (الرفضي) غايبة .. كنت فين ؟

قالت رحمة في خنوع :

*عند ناس قرايب في (شطورة) ياسي عثمان

ضحك عثمان .. ثم تجهم علي فجأة وشمر عن ثيابه وهز لها عضوه النائم .

*قرايب مين يا أم قرايب .. لكمة تلكمك .. تلاقيك كنت دانه في شقق العزاب بحري ((تفو))

تباكت رحمة .. ثم نظرت إليه بعيون مكحلة بخطوط عريضة .

*لمني في الحلال ياسي عثمان .. ربنا يسترعليك وأعيش طوال حياتي خادمة لك !

تمتم عثمان وقد حنت مشاعره .. فلكمها في صدرها البض .

*تتعدل يا رحمة !

obeikandl.com

عاثت أصابعه في جسدها ، فتبدو رحمة مرخاة الأهداب .. تطل من وجهها أصباغ صارخة .. تضمه بشبق .. يسقط عليها عثمان .. يجمعهما القيلولة خلف (السدية الجريد).

(4)

في المساء ،تجمع الرجال في (مقهى الزعمان) ودوي سعال عثمان وفمه يشد نفسا عميقا من النارجينة ،ارتفع صوت رجل عجوز يخاطب عمال (الدريسة) : ((يا خلق أرضنا طاهرة ، والله يحميها)) وانطلق رجل يثرثر مثل مدرس ، يعد قراءة التاريخ ، تحدث في أمور متشعبة وختمها بصوت واضح (الوحدة العربية حلم عبد الناصر وهذا الحلم سيأتي علي رأسنا بالتعب من الغرب) .

وبين رائحة الدخان ،وبخار الماء ،والشاي المغلي ، ارتفع صوت" الشيخ عليان" مرتديا قفطانه الشاهي المخطط ،وكاكولته الصوف الجبردين كان ماراً بالمقهى ،تفوه قانطاً من هذا التهريج السياسي الذي بدا يعلوه داخل المقهى .. القي عثمان "لي " النارجيلة من يده عندما لمح " الشيخ عليان " قال الشيخ وهو لا يعير عثمان اهتماما : ((آن للزمن الجائع أن يلتهم الضعفاء!!)) .. علق عثمان وهو يقترب من الشيخ : "نحن نتبع أضعف الأيمان يا سيدنا" .. حدجه الشيخ بنظرة غريبة : ((لا حول ولا قوة إلا بالله .. لماذا هذه الذلة والمسكنة)) علق آخر :((وماذا بأيدينا يا مولانا؟!)) .. أربد وجه الشيخ وقال ((بأيدينا الكثير يجب أن يسكن في قلوبنا حمية الوطن ،والأرض ،والدين)) رفل الشيخ عليان مغمغما مع نفسه ،ملوحاً بمسبحته : ((آن للزمن الجائع أن يلتهم الضعفاء)) كررها مرات ومرات حتى غاب عن العيون .

(5)

لنتحدث قليلاً عن عم (بشارة) : صديق جدي، بسطاوي بلدنا .. كان ابيض في لون الحليب .. طول عود (السرو) ضخم الجثة كالباب ،تئن حمارته السوداء تحته وهو يلكزها بقوة في بطنا .. كان يمر علينا يومياً في طريقه إلي صندوق البريد المثبت في جدران دوار العمدة القريب من دارنا .. يكبش بعض الخطابات من (خُرجه) المرابط فوق الحمار، يستفسر عن أصحابها من جدي .

كنت ألمحه أحيانا في غفلة من جدي ،يفتح ورقة (سلوفان) صغيرة ، يخرج "ثمارة الأفيون " يدسها خلسة في فمه ويشفط الشاي متلمظاً .

وفي المرة الأخيرة حين رأيته مضطرباً فالتبس علي الأمروادركت أنه في محنة ..

سمعته في مرة من المرات يشكو لجدي ضعفه في فراش زوجته "البحراوية" ،فأشارعليه جدي بالعسل الأبيض وحبة البركة .. فقال له :

*جربتها يا حاج عمران دون فائدة .

فابتسم جدي وقال :

*يبقي عجلك فش يا مقدس بشارة !

فضحك بشارة وهو يلم الخطابات المبعثرة علي الدكة :

* يلا حُسن الختام يا حاج !

قال جدي وقد تغيروجهة مخاطباً بشارة :

*والله أنا اللي باين عجلي فش يا بشارة عندي (زعدة) في قلبي راحة تقضي علي !

فارتجف بشارة :

*ألف سلامه عليك يا حاج .. طب بينا نروح لدكتور البندر.

قال جدي بصوت ضعيف:

*يومين أن شاء الله بس نفوق من شوية القطن اللي هيضيعوا منا .. وبعد كده نشوفو نفسنا .

(6)

بعد أسبوع ..

كانت عمتي تجلس أمام الموقد تنفخ في النار وعيناها تدمعان من الدخان .. ثم همهمت بالبكاء وقالت وهي تُحمي طفلها في (الطشت):

*ربنا يعفي عنك يا حاج عمران ..

obeikandl.com

قاطعها صوت مكتوم كالطفل الصغير .. كان صوت "مجاهد" يرقد بجوار (طوالة) الجاموسة:

*يا اللي مالينا حد بعدك يا حاج عمران

ثم عاد يهمهم بالبكاء ويمسح مخاط أنفه - الذي تدلي – بكم جلبابه

(7)

اشتد المرض بجدي علي غرة ، وجاء أبي بحكيم البندر،فاسر إلي أبي بأن جدي في ساعاته الأخيرة ، حزن أبي ، واقتربنا حول جدي نتحسس منه كلمة تنبت علي فمه ، تنبه قليلاً بعبارة قد دمرها المرض :"ربما تكون هذه آخر كلماتي لكم يا أحبابي " شد علي يد أبي " .. أسمعني يا سعد ، هناك بلاص برقبة وليس بها ودان مدفونة تحت الفرن القديم في دارنا البحرية " كان والدي يسمع في اهتمام" .. أعتقد أن بها كنز ، تركه إلي والدي ،جاء في المنام،وقال لي : (عمران لا تحفر علي البلاص إلا بعد هذه الرؤية بخمسة عشر عاما بالتمام والكمال،إذا سمعت نصيحتي ستجد الخير كله !) تنهد جدي ، وابتلع ريقه الذي جف وكز علي أسنانه الثرمة المعلقة في فمه ،ناولته قليلاً من الماء

ثم أكمل علي مسمع من أبي وأخوتي الذين هاموا بما سمعوا:

((يا سعد .. يا أولادي .. لا تتركوا دياركم عُرضة للشياطين حتى لا تسكنها العفاريت))

كان جدي يوزع صنوف الكلام والنظرات علينا غمغم وهو يشير بسبابته إلي أعلي النتيجة المعلقة في الحائط " باقي من الزمن خمس سنوات وشهر من تاريخ الرؤية " .. صمت ثم عاد وجسده يحتضر: "أشهد أن لا إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " ومات في هدوء مطبق.

(8)

هبت الرياح عاتية ، ونشر الليل حجبه ، فلاذ القرويون بدورهم يحتمون من البرد القارص .

كانت رحمة تقف أمام المرآة المعلقة علي (السدية) تمشط شعرها المبلول وقطرات الماء تلسع وجه عثمان عندما تجذب المشط في شدة .. كان راقداً في الفراش متحرراً من ملابسه .. ينظر إلي صدرها الناهد ..تتسرب الدقائق شيئاً فشيئاً ، يتسرب سرسوب هواء بارد من خلف الشرخ الزجاجي وتسقط نقتطان تنبئان بأن المطر لا محال .

(9)

ومر شهران وفي الصباح الباكر ، كان بخار الماء أبيض كثيف يجثم فوق أشجار الجميز والنبق وينبثق ضوء خافت بين البنايات الواطئة .. ركب أبي الحمارة ساحباً خلفه الجاموسة ، يتجه إلي الدار البحرية القديمة ، كانت الدار علي حافة الطريق المؤدية إلي " السلاحليك " ، يجلس أبي أمام الدار وبصره معلقاً بالفرن القديمة التي هلس عليها العنكبوت ، وزحفت الشمس علي رأس أبي فلم يشعر بها ، وأخذت " شيلة" برسيم ورميتها للجاموسة فلم يشعر بي ، تركت أمامه "صرة" بها الغداء كانت دموعي تتساقط في هدوء فوق العفش اليابس الذي فرش الأرض.

(10)

مالت الشمس قليلا ، لتواجه الدور الصغيرة ، وظهر " جاد المولي " – المجذوب – يرفل في ثياب رثه ويحتضن جدياً صغيراً ، يتقافز علي قضبان السكة الحديد تارة وفوق "الفلنكات" الخشبية تارة أخري يدندن بصوته :

« كل شيء هيظهر.. والضحك في النهاية .. والخير جاي

كان عثمان منكفي علي البنت رحمة فبدت أنفاسه تتلاحق بسرعة .

تلعثم عندما عاد صوت « جاد المولي « :

((يا سابل الستريا رب !!))

(11)

الكنكة الصغيرة ترقد في " القروانة " وسط قوالح الذرة والماء يتقلب تحت قسوة الوهج ، يرتفع بصر أبي إلي ضوء الكلوب المعلق بمشجب مدلي من السقف ، كانت

فراشات تحوم حول النور وتحترق ، نهض أبي مسرعاً ، دون أن يحدثنا بشيء ، ثم أعطانا وجهه وقال :

« تصبحوا علي خير »

قلنا بصوت واحد :" وأنت من أهله »

(12)

صحوت فجأة في قلب الليل ، ابحث عن قُلة الماء ، فسمعت صوت أبي يحدث أحداً وبعد قليل أجد صوت زفراته يتلاحق ثم يعود أدراجه إلي الحديث الخافت .. همست إلي أخي عثمان ، فدفعني بساقه الطويلة وقد رقد علي سريره الجريد .. قال بصوت الفظ " غور اتخمد ، تلاقيه بيحلم بالبلاص .. آخ يا البلاص .. سأشتري منها خمارة الخواجا " فلتس " وأتزوج بنت شيخ الخفر، واضرب التخين بالجزمة القديمة في البلد الوسخة دي »

(13)

وقفت علي الجرف البحري ، انظر إلي دار جدي القديمة ، وتبدو قليلة بين الدور الأخرى ، خلف الدار كانت الأرض تنحدر خفيفا إلي شاطئ الترعة وحولها أثار سياج من الطوب وبدأ التل القابع في نهاية النجع أصغر مما كان في المرات السابقة ،تقدم خطوة نحو الدار كان متكورا داخل نفسه ، يستند برأسه علي الجدران ، كانت تحمل أثار أمطار قديمة.. ما يحدث الآن يبدو غريبا .. لقد ترك أبي الطعام الذي هو به شغوف ، ولم يعد يذهب لصلاة الجماعة كما تعود .. كان فمه الواهن يلتقط بعض اللقيمات دون أن ينبس بكلمة .. تذكرت صوت أمي " رحمها الله " عندما كانت تحكي لنا عن أبي الذي شرب "رطلين سمن بلدي " علي ريق النوم ، وفت رغيفين " شمسي " في قصرية وش مع كوز مش قديم .. تنهت ، فوجدت أبي يعبس تحت وطأة نظراتي العالقة به ، فيمضي بوجهة أخري .. قدمت إليه قُلة الماء ، تناوله ببطء وبيدٍ مرتعشة رفعها علي فمه .. بعدها .. قال بعض الكلمات :

*إبراهيم قوم روح لربما أخواتك يستعوقوك ، ابتسمت في وجهه ، وأحسست – عندما نظرت إلي بريق عينيه – بنشوة تسري في جسدي.

(14)

تهوي الغربان علي فجأة .. تحلق بجناحيها فوق أشجار الكافور العالية ، ويأخذ الظل شكلا دائرياً عند الكوبري " أبوسنان " خرج أيوب " عامل التحويلة " من كشكه الخشبي العتيق ، ولمح من بعيد أخي عثمان يحث حمارته علي السير " حاااااه يا فقير عبد الظاهر " سأله وهو يقرط علي الصواميل :

*كيف حال أبوك يا ولدي يا عثمان ؟ سمعت أنه عيان من جمعة «

نطق عثمان بكلمات فاترة " رايق «

كل شيء من حوله يُخرج بخارًا ابيضاً حتى منخار الحمارة التي تسير ببطء علي غير عادتها ، في هذا الصباح الشتائي .

وقرب الأنحاء جهة بيوت العرب القليلة ، سمع صوتا ينادي :

«سي عثمان «

تنبه عثمان خلفه ،

*خير يا رحمة ؟!.. قايمة ليه من النجمة ؟

قالت وهي ترفع طرف ثيابها عن ساقين كالشمع :

« سمعت أن عم سعد بعافية شوية قلت أسال عليه عيوني عثمان»

قال وقدميه تلكم الحمارة في بطنها لتسرع : « بخير يا رحمة !!»

لوحت بذراع مكشوفة بيضاء (مع السلامة يا عثمان .. أوعاك تنساني يا حبيبي أنا هنا غريبة) تمتم عثمان وهو يبعد :(قبر يلمك)

(15)

أختفي نصف قرص الشمس .. وزحفت ظلال المساء علي القرية فكان -العسكر السواري قد أقبلوا يتقدمهم ضابط المركز .. يعم القرية لغط وهرج بعد اكتشاف جثة البنت رحمة عائمة في المصرف العمومي.

وراحت تجأر الأصوات .. ما بين الشماتة والألم علي المسكينة الغريبة ، التي راحة فطيس

ولا زالت الشمس تنشر حرارتها علي رؤوس النسوة اللاتي قعدن في الوسعاية ،وفي العيون لمعة حزن علي البنت رحمة .

كنت اسمع صوت عمتي نجية عند (الحنفية العمومية) تخاطب النسوة فيما حدث للبنت رحمة

*الله يكحمها مطرح ما غارت .. دي كانت (مبوظة) نصف شباب البلد .. وعمالة تشاور نفسها في النص التاني .

(16)

كان ضوء الصباح ينتزع نفسه بصعوبة من بوتقة الليل ، عندما انتهت الحكومة من البت في جريمة قتل رحمة وقيدت ضد مجهول .. فساد دروب القرية – لحظة سماع الخبر– هدوء مطبق .. مرعب.

(17)

احتونا المكان الضيق ،بعض الشيء ، حول السرير النحاس المرتفع الأعمدة ، كان أبي يرقد فوقه ، يتملكه المرض .. قالت عمتي نجية ويدها – المعروقة - تلم الملاية حول وسطها وخلفها زوجها مجاهد يجرجر أقدامه :

*تقعد بالعافية يا أبو عثمان . أن عزت حاجة شيع لي إبراهيم .. فركة كعب أكون عندك.

وقف عثمان بجوار النافذة ،ونقر علي الزجاج مرتين .. قال يخاطب نفسه : " متي تطلع يا دهب .. طلعت روحنا وروح أبونا . سفخس عليها عوزة

وكان ضوء الكلوب في الغرفة ينشر رواقة ،يظهر وجه أبي الشاحب ، انقض أبي مذعورا ، ونهض بظهرٍ مقوس ، وبصوت متقطع :

*البلاص .. البلاص .. وبعد وفاتي ب ب ب .....

ارتعشت الكلمات في حلقه ، دون أن يكملها وصعدت روحه إلي خالقها .. رأيت – وأنا ابكي علي قبر أبي – أحلام عثمان التي دمربها رأسنا تعلن عن حريتها .. كانت جنازة أبي أشد الجنازات حزناً – في نفسي – في تاريخ البلد.

(18)

سرعان ما كان العراك ينشب بيننا وبين عثمان .. في كل مرة تبدو وكأنها المعركة الحاسمة .. ثم يسود الصمت بيننا .. وكأن شيئاً لم يحدث .

(19)

تدلت الفوانيس علي وجهات الدور القابعة فرادي ومتجمعة ، وراحت ظلال أكوام الحطب ترسم أشباحا فوق الأسطح .. جلسنا حول " القروانة " نستشعر الدفء .. نهض عثمان ، وأخذ يمشي في صحن الداروبصرنا معلقاً بخطواته ، ننتظر قراره .. لن نختلف عليه حتى نرتاح من " وش الدماغ " الذي عيشنا فيه عثمان بعد وفاة أبي ، علي غرة ، كادت رأسه تخبط في " كمرة " السقف من قفزته : " الله ينور عليك يا عثمان يا أبو الأفكار.. نهض أخي الوسطاني " محمود " يستفسر فأشار إليه عثمان بقلة أدب :" اترزع علي حيلك أنت شرابة خُرج .. لا مودي ولا جايب « ..

فجلس أخي في ركود .. حزنت علي كسفته .. فقلت بحرقة :

((لم الدور يا عثمان وهات من الأخر بلا قلة أدب))

وقف عثمان بجوار " قطاوي " الحمارة. كانت يده تعبث في شعره الأكرت يعض علي سبابته ، واتسعت أساريره ثم قال :

* لقد قال أبوكم وهو بيموت : بعد وفاتي ..... وسكت .. ولم يقل بعد رؤيتي بالمنام . أو بعد كام سنة .. كما فعل المعتوه جدكم .. سنفتح البلاص الليلة دي

(20)

هبت رياح عاتية ، كان قد انقضي الثلث الثاني من الليل ولاذ الناس بدورهم يختفون من البرد القارص ، في هذا الوقت كانت الديكة تهلل فوق أسطح الدور وصوت " الدركي " المكف بحراسة البلدة يعلو بين الحين والأخر بصوته الجهوري : "

هاااااااااه مين هناك ؟

رأيت النور يهز الظلمة ، ونحن نتسحب خلف عثمان كالمطاريد تمتمت بعد تعثري في فرع شجرة جرح قدمي «منك لله يا مكفي !

« الحجاري " الحديد يهتز علي كتف عثمان ، وأيدينا ترتعش وهي تقبض علي المقاطف الزعف ، حاولنا بكل جهد أن نتحسس الطريق ، حتى لا يشعر بنا " الدركي " وتختفي أجسادنا في ظلال الأشجار المتشابكة .

(21)

أشرف الليل علي الزوال أو أوشك.. لحظتها .. كانت أبواب البيوت مفتوحة لا تنغلق إلا في ساعات الليل الأخير ، وغبشة الفجر تلوح في الأفق ، وفئران دار جدي تهرول بين الفرن وصومعة الغلال المهجورة ، نقرب الفانوس من الموقع ، اشعر أن كل شيء كان معداً لمجيئنا .. كان وجه عثمان ملتهباً في الضوء الخافت ، أشار بإصبعه : " هنا .. هنا " .. كان الوقت يمر بطيئا ، بعد هدم الفرن والرياح الباردة ، تعصف بضلفة الشباك ، فاهتز ضوء الفانوس فتراقصت محتويات الدار تصنع أشباحا ، تلبشت أبداننا عندما ارتفع صوت نباح الكلاب من بعيد

هب عثمان واقفاً ، وأخذنا نحن جانباً ليس ببعيد ..علا صوته ويده تهوي ب" الحجاري "علي البلاص " يا هاااااااادي " فانفلقت نصفين .. وتناثر منها طميا لدناً ، وتلطخت ملابسنا ووجوهنا ثم صعدت رائحة كريهة ، وخرج خلفها أسراب من الديدان ، التي أخذت طريقها إلي أقدامنا .. صرخ عثمان محملقا فينا ، وأنفاسه تتهدج كمرجل يغلي :

* أيه الفقرده ؟ طين معفن ودود !! أبونا مات بلاش وأحلامنا ماتت قبل ما تولد ..

شعرنا جميعاً بخيبة ، فالمشهد كان أسرع من أن تستوعبه عقولنا ، وأصابنا الغثيان ، ورحنا نتقيأ ونستند علي دعامات الدار الآيل للسقوط .. مرت لحظات ونحن نتحسس أبداننا ولفنا الصمت ..

وبعد أن وهن الليل ,, سري صوت « الشيخ عليان « معلنا عن صلاة الفجر .. غمغمت وأنا ارمق أخي عثمان وقد حل به الإرهاق وتدلي شاربه :

* يا جماعة ليس هذه ما كنا نبحث عنها ، أتذكر يا عثمان كلمة جدي لنا وهو يموت عندما قال : هناك بلاص برقبة وليس لها ودان ، ولكن ما وجدناه بلاص برقبة ولها ودان!!

سري دبيب الرعشة في عثمان ، وقد شمخ برأسه قليلاً ، وراح ينظر في هدوء ووقار ، واحتوته مشاعر الإذلال .. ثم استيقظ علي صياح الديكة .. وسرت رائحة مألوفة تحمل بقايا أنفاس الليل .. لحظتها .. بدأت القرية تتمخض عن يوم جديد .

obeikandl.com

تبة الشجرة

حكايات.. "جابر عبد السلام"

(.....)

في هذا الحي القديم ، يقطن ذلك العجوز الذي قرضه الزمن ، ولم يبق له إلا تجاعيد مهدمة ، وذكريات طويلة من الألم .. يتداخل مع تلك الذكريات نباح .. بعيد .. متقطع.. الليلة تحركت مواجعه الراكدة - علي غفلة- وطفحت محاجره بالدمع حين ارتفع غناء رخيم..طري من ثنايا الليل البهيم، فأصغي له بحنين متوجع ، وعندما انفتح الباب نفثت الشقة رائحة زمن قديم، وأنفاساً محبوسة، يختلط عبقها المخزون مع هواء عطن، حتي تنفس الصبح ، وانتشر في الأفق تباشير يوم جديد، راح يمسح دموعه وينام هادئاً .. قرير العين ، مستسلماً.

(١)

.. ليلة ٣٠ديسمبر١٩٧٣م ..

المشهد/ ليل/ خارجي... والليلة شاتية.. كانوا قد تجمعوا - كما اعتادوا - تجمع كل ليلة ، ولكن الملل قد بدأ يتسرب إليهم وأملهم في ظهوره راح يتأجج ..وجاء واحد،منهم ، من بعيد ، يرفل في أسماله وقد تهلل وجهه بالبِشر..وقال انه رآه عند الحنفية العمومية قادماً، فتهلل الجالسون ؛ لمعرفة الخبر ، الليل وقتها كان جميلاً..رغم برودته القارسة ..

اقترب منهم..كان يستند علي عكازين خشبيين تحت إبطه..

- سلام عليكم .. يا رجالة ..

- وعليكم السلام .. يا بطل..

كان " جابرعبد السلام " لا يتخطي العقد الثالث من عمره ، وجلس- بعد مساعدته في الجلوس- برفقتهم يحكي الحكاية.. فتنحي أناس وأعتدل آخرون ، وامتدت الأصوات تصلح أوضاع الجالسين ، وتوسع الحلقة، وتلاقت العيون والأسئلة كلها عليه ..

.. كانت الغبطة بقدومه تغلب علي وجوههم ، وراح "جابر" يوزع عليهم صنوف التحية..تحدث عن يوم الثامن من اكتوبر١٩٧٣م ، وكيف وصلت سارية الدبابات المصرية إلي (تبة الشجرة) التي كان يتمركز فيها العدو الصهيوني ، فقال : ((..كنت من ضمن أفراد الفرقة ١٦ ، وعندما صدرت الأوامر من قائد الكتيبة ، فركب كل أفراد المشاة الدبابات ، كنا نزيد عن ٤٥ فرد، مسلحين بالأسلحة الخفيفة.. "الأربي جي " و الرشاش الخفيف"، واندفعت الدبابات خارج رأس الكوبري المحدد في اتجاه (تبة الشجرة)..

كان الزحف شديد من ناحيتنا..فبدأ العدو في الانسحاب مستتراً بنيران قوات أخري..وتمكنت القوات المصرية من الاستيلاء علي" تبة الشجرة وفرمنها العدو للأبد ، وتم إجبارهم علي ترك المنطقة بأكملها، بعد قتال شرس استمر٧ ساعات متواصلة.. وكانت الإصابات منا متفرقة.. وفقدت فيها ساقي اليسري..وفجأة سكت "جابر" عن كلامه ، وسكت الناس لسكوته.. كان الصمت ينتصب كصمت المقابر الموحشة..

وفي لحظة من لحظات السكوت نادي واحد من الجالسين وطلب شاياً لجابر..

- هات شايا للبطل يا معلم..

واستطرد جابر كلامه ، فقال :

- يا رفاق ..كل حبة رمل وتراب في وطننا غالية ، تستحق منا كل التضحية.. وساق جابر- وأشار إليها- كانت بمثابة بخور طهرو"بسلة"مباركة تحترق ؛ لحفظ وطننا من الحسَّاد والخونة !

وعندما زحف الليل ، مد يده في خجل مؤدب وسلم عليهم بحرارة وهو يقسم عليهم ألا يتعبوا أنفسهم ويقوموا .. وتحرك.. وهو يتوكأ علي عكازيه..يظهر من تحت

ثوبه النظيف الشاهي .. قدمه اليمني فقط.. وقبل شروق الشمس الجديدة ، كانوا جميعاً يأخذون طريقهم إلي النهار، وكانوا يودعونه ووجوههم باسمة حالمة، وأطياف من الليل التي مضت تلوح لهم وتظل عالقة بخاطرهم تخفف ما في نهارهم من حدة..

(٢)

وبعد سنوات طويلة..

...انزلق قرص الشمس سريعاً.. وثقلت رؤوسنا بالصهد.. كان نصف الرفاق قد رحلوا لدار الحق .. وتقلصت جلسات "جابر" معهم

الرجل (١) :

- لقد سمعنا من أمنا انك كنت مجنداً بقوات الأمن المركزي، ولم تشارك في الحرب.. إيه قولك يا جابر(وابتسم في لؤم)..

الرجل (٢):

- والله ..أنت ضلالي..جابر بطل لا نختلف عليه..

الرجل(٣) يخاطب الرجل (٢):

- دهدي يا أخينا... هو أنت كنت معاه..؟!

وقتها .. وعندما ارتفعت الأصوات وتزاحمت ، شعر "جابر" بغصة ومرارة في حلقة من هذا الافتراء الجاهل.. وترك المكان.. يتوكأ علي عكازيه..يخترق ظلام الحارة الذي لا ينقطع ..

(٣)

...وعندما شاخت حكايات "جابر"..قرر أن يرتدي الساق الخشبية التي طالما رفض أن يلبسها ؛والتي ربما تحرمه من متعة سرد الحكايات الجميلة..وصمت عن سرد الحكايات... فقد كان السفهاء الجدد للجلسة يشككون في كل شيء يقوله ..

(٤)

obeikandl.com

في الذكري العاشرة للاحتفال بنصرة أكتوبر المجيد.. غُرض فيلماً تسجيلياً ، كان من ضمن مشاهده ،صورة حية للبطل " جابر عبد السلام" .. والتعليق جاء فيه.. " من الأبطال الفدائيين لمعركة (تبة الشجرة) والذي فقد ساقه اليسري في تلك المعركة.. البطل " جابر عبد السلام" ..

وجاءت صورة حية وواضحة لزيارة الرئيس السادات للمصابين بالمستشفي العسكري ..كانت صورة " جابر عبد السلام" واضحة كل الوضوح.. كان يرقد علي سرير المستشفي والرئيس يحيه بحفاوة ويربت علي كتفه في حنو..

(٥)

تسابق كل الرفاق.. مؤيد ومعارض.. للاعتذار لجابر، لكنه تجاهلهم ولم ينبس بكلمة ..وراح يمشي علي ساقه الصناعية ، ولم يعد يرغب في سرد حكاياته ..التي طالما عشقها....

وأخذ يردد مع نفسه..

"..أحبتي ..أعلم أنكم مللتم حديثي .. وكل الذي أرجوه أن تضيفوا لصبركم صبراً علي سماع حكاياتي .. جابر..أنت نفسك مليت من سرد حكاية لم يعد الناس يهتم بها.. ربما صدقوها في أوج الحدث.. لكن في من الأجيال الجديدة لا تريد أن تعرف.. وان أرادت فإنها تشك في كل ما هو حقيقي..أنا نفسي لم اعد منبهرا بتلك الحكايات .. رغم علمي تمام العلم بصدقها..فكيف يصدقها من لم يكن معنا.." .. وابتسم في مرارة..

(٦)

وبعد إلحاح – علي "جابر عبد السلام" - من أهل الحي .. لأن يسجل حكاياته تسجيلاً صوتيا علي (أشرطة كاسيت)..مسك "جابر" (المايك).. وقبل أن ينطق بكلمة ، لفت انتابه شيء غريب ، فقد نظر لساقيه الممدودين أمامه ، الغريبة أنه لم يعد يعرف أيهما الطبيعية وأيهما الخشبية..فقرر ألا يكمل التسجيل لحكايات لم تعد ذاكرته تستوعب صدقها وبدون سابق تدبير، كان المشهد يتأرجح بين الوهج والظلام.. صمتٌ طويل.. وظلال الغروب تعلو علي (تبة الشجرة)..وهي تفرح بسارية العلم المصري الذي رفرف كثيراً علي سكناتها العسكرية..وزادت فرحته

، واتسعت أساريره بالابتسامة ، عندما لمح جنود الأعداء تهرب في الخفية كجرذان الحقل ، وقت أن زحف عليهم جنود مصر كالسيل الجارف.. رغم قلة عددهم..

(٧)

وما إن تخطو عقارب الساعة متجاوزة نصف الليل، حتي يتدثر هذا الحي العتيق بصمت رهيب..يقطعه- علي فجأة- صوت "الكاست "في كل البيوت يردد حكايات "جابر عبد السلام"..

obeikandl.com

obeikandl.com

ورقة من دفتروطن

(١)

عندما أضيئت السماء بالقذائف الصفراء ، تطلعت عبر النافذة الحديدية إلي قرص الشمس الأرجواني ، كان يميل إلي الذبول، يلامس حافة الأفق البعيد .. ترامي إلي سمعي صوت سيدة (خمسينية)، وجهت إلي الكلام بصوت خفيض:

*لو تسمح يا ولدي يحميك لشبابك .. .. و(صمتت)

*شوبدك يا أمي ؟!

قالت وهي تهمس وتلتفت حولها :

*أنا أم شفيق الوزان.

تمتمت وأنا أشيح بوجهي خجلا ..

*عذراً يا أمي ، سمعت من رفاق الجهاد ,, أنه مسجون لدي الغرباء ، ارتبكت العجوز .. ثم نظرت إلي السماء الحُبلي بسحب متقطعة .. ولمحت تجمد الأيام في الوجه العجوز وهي تردد بعض الأوراد

*يا لطيف .. يا سابل الستر يا رب .. لا إله إلا الله ..

(٢)

انتصف النهار ولم أغسل وجهي .. نحن معاً في الشارع ، عصراً والشمس حادة .. كنا جميعاً مسلحين ، وهتف قادم:

obeikandl.com

*الغرباء يقصفون الضاحية من الثكنة المقابلة.

لحظتها .. أطلت علينا السيدة العجوز ، كانت سمينة ، قصيرة ، تمشي في صمت.. متثاقلة ، وعندما وصلتنا لمحنا وجهها مشرقاً بابتسامتها التي اعتدنا عليها ، هتف الجميع بفرح :

* أم شفيق الوزان.. أم شفيق الوزان !!

في الأيام الماضية كنا نذهب إليها ، نأكل في دارها ، الزعتر والجبن والخبز الساخن ، ونعفر لفائف السجائر .. كانت تفرح بباعة الخضار والفواكه .. القذائف بجوارهم تتساقط وتحفر الإسفلت ، وتدمر البنايات ، ومع ذلك يواصلون البيع حتى حين تنفذ بضائعهم.. يظلون جالسين بجوار الأقفاص الخاوية..

(٣)

بعد شهر...

في الهزيع الأخير من الليل .. لم نذق طعم النوم .. لقد أشتد المرض علي (أم شفيق) .. ورحلت وفمها الرقيق يوزع علينا صنوف الكلام :

*المدينة .. المدينة .. موعدكم الجنة بإذن الله !!

ورحلت في صمت مطبق .. لحظتها شعرنا جميعاً بالبرد القارص وشاخت قلوبنا .

(٤)

استيقظت في المخيم .. لا أعرف كم لبثت في النوم .. خرجت إلي الشارع .. كان صوت الموت ورائحة البارود هو السيد لحظتها .. والدروب الضيقة تحرثها المدافع .. تذكرت الآن أن روحي فقط هي كل ما تبقي لي من العائلة .. فما الذي أبكي عليه .. لم أعد أملك بيتاً يحميني من الرياح الشتوي ، أو خزينة احتفظ فيها بكتاب أورادي ..

ومن الغرابة – وبالأخص في هذه اللحظة- أن أتذكر حبيبتي فاطمة .. اشتهي صوتها ، لأشعر بالدفء ، بعد رحيل (أم شفيق) نفخت الفكرة من رأسي عندما لمحت الأزهار تذبل في أصيصها علي الشرفات .

* أيمكن أن يصدر الياسمين هذه الرائحة وهو يموت ؟! .

لا زلت أنقل قدماي المتعبة بين الركام والأدخنة المتصاعدة من مصادر مجهولة .. واحتوتني زحمة الجثث بين حنايا الأزقة ،والدروب المدمرة معظمها:

* هل دُمر قبر أم شفيق الوزان ؟!

هززت رأسي نافياً قبل أن أتحقق من الإجابة .. لمحت علي بعد أمتار مني .. يقترب .. يقترب .. كان يحملق في .. صرخت فيه بهلع :

*أنت ... مين ... أنت مين ؟!

أربكني عجزي وقلة حيلتي .. لم أجد أحد يجلس علي المقهى ؛ لأسأله عن هذا القادم الغريب .. حتى بائع (السميط) اختفي .. لم يكن يجلس في مكانه المعتاد .. ساعتها أحسست أن الكون قد ترامي وامتد ، وراح يبوح بالظل في وجه الحقيقة

(٥)

لقد زاد المطر واخذ يمزج علي سطوح البيوت الآيلة للسقوط .. وقتها لمحت زجاج الحياة مغبراً .. فانتعش بداخلي كلام دبت فيد نشوة حب .

وهممت بترك المكان .. لكن شيئاً ما منعي .. وقيد حركتي فأحسست أن حياتي هنا .. تحت سور المدينة .. عدت ارمق العجوز القادم .. حاولت أن ارتق ذاكرتي .. فشلت .. اقترب أكثر .. فصاحت أمعائي ب» ظراط « متكرر .. إنه من الخوف لا التخمة ، فبطني خاوية منذ موت (أم شفيق) .. وشعرت بعشب بحر جاف يستقر في حلقي .. ساعتها كان القمر مخنوقاً .. وأشباح المقابر القريبة من الجبل تتنطط في غبطة .. عدت ألتفت إلي العجوز ،لقد اختفي .. فاستوحشت المكان .. وأخذت أغوص في الدروب الثعبانية ، في هلع .. وكأن عفريتاً قد لبسني.. صرخت :

* أين العجوز .. أين الناس ؟!

(٦)

سقط فكي وتجمد .. عندما لمحته يخرج من تحت غطاء المجاري .. تأملته كان يعتمد علي يديه اليابستين ، ليخرج .. رأيته يحمل علي رأسه – المعروقة- قصعة ملطخه

بالدماء عليها أثداء نساء وأعضاء رجال منكمشة ....

*لقد مات العالم يا مازن !..

(كانت هذه أول كلماتي اسمعها من العجوز).. شعرت بالغثيان .. فتقيأت .. وتعملقت الحرارة في جسدي ، فأخذتني أجمع البصاق في فمي ، وبكل ما أملك بصقت في وجه العجوز .. قهقهه وقال :

* لا عليك .. اقدر حزنك .. لقد مات العالم يا مازن .. أين كنت .. ؟!

* .....

* لم يبق من العالم إلا أنا وأنت وقصعة الأعضاء هذه !!

* كيف حدث هذا ؟! .. أنت كاذب !!

وارتفع صدي كلماتي الأخيرة .. وعاد الصوت يطن بداخلي .. والعرق يتفصد من كل الجسدي .. ثم عاد العجوز يتكلم بعد وقت طويا .. فبدت أسنانه الصناعية شديدة السواد .. وبعد لحظات أوقفتني الدهشة عند سور المدينة ، عندما لمحت بندقيتي ذات (السنكي)اللامع في حوزة (أم شفيق) توجهها علي رأس العجوز .. راح يصرخ كالمخبول ، واخذ يعبث في الأعضاء المبتورة في هلع وارتفع صوت (أم شفيق) بالزغاريد :

* الغرباء ليس بحاجة إلي رجال بل أرادوا مفاتيح المدينة !!

سادني ارتباك ورعشة فرح .. عندما أحسست بأول شعاعات الفجر تتسلل فوق المئذنة .. ورأيت المدينة الجميلة شمعة تضئ وترتعش ،رغم كل ما يحيط بها من ظلام مطبق ودمار! .

obeikandl.com

الطريق إلى الله

(١)

هب نسيم خفيف, فراح يداعب ملابس إحرامنا, فارتفعت حناجرنا بالدعاء والتهليل.. وكانت السيقان العارية تبدو مشدودة وسط زحمة الطائفين حول البيت الحرام.. انطلقت وكأني بُعثت مخلوقاً جديداً, يرنو إلى مغفرة رب العزة , فكم تاقت نفسي إلى هذه الزيارة المباركة! ...ولكنها إرادة الله (عزوجل) تتم حين يشاء.

كنت أطوف برفقة أستاذي الجامعي والذي صرنا- فيما بعد- زملاء عمل بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف ... أخذت اللحظات تمر في سعادة غامرة وروحانية عالية , ونحن نسمع خليطاً من الدعاء والبكاء في تلك الأثناء ,وكانت الشمس تطبع علي الأفق قبلة طويلة دامية , وسرب من حمام الحما يطوف معنا في وداعة وسكينة .وكأني لأول مرة أدقق في ملامح أستاذي (السبعيني) , فقد كان بياض وجهه الناصع يختلط مع صلعته في وجه أشعة الشمس الذهبية , فهمس إليّ وقد اشرأب عنقه مشيراً بيده- المعروقة – إلى رجل قريباً منا ..كانت يداه معلقتان بأستار الكعبة ..وفمه قد أرغى و أزبد .. كان فارعاً ..تنزلق نظارته حتى تصل إلى أرنبة أنفه, وفمه في لون العقيق الأحمر يرتعش, وعروق رقبته تظهر واضحة الملامح من أثر الصياح.

*دكتور صفوت .. أتسمع صياح هذا الرجل ؟.. من أي بلد هذا يا تري؟!

وكما أصابت الدهشة أستاذي, أصابتني ولكن بشدة .. فقد كان الرجل يردد صوتاً أشبه بالصراخ.

يفوق جميع الأصوات بدرجات :-

((أبا..أبا..أبا.....)).

كان بجواره رجل يبدو أنه صديق ومرافق له , فهو يقف خلفه وكأنه يسند ظهره ؛ خشية أن يقع .. فساقني الفضول , واقتربت منه..أحسست أنه مصري الجنسية من سحنة وجهه..

فأشرت-بدون مقدمة تعارف - إلى الرجل المعلق بأستار الكعبة..وقبل أن أنطق ببنت شفة , نظر إليّ صديقه مبتسماً , تزين وجههُ عينان صافيتان , وعلي خديه غمازتان تكمّلان جمال البراءة التي توسمتما فيه..وما إن وقعت عيناه عليّ عن قرب , حتي حني رأسه في أدب ثم عاد وخاطبني في هدوء جم , وهو يوزع صنوف النظرات علي صديقه من رأسه لأخمص قدميه:-

*انه صديقي يا سيدي ... ونحن زملاء في مصلحة واحدة ,ضمن بعثة الحج المصرية....

صُمّ سمعي ..وتجمد عند كلمة (المصرية) , فعبثت الأفكار بين دهاليز رأسي ..كان الزحام قد ازداد حدة ..تخترقه أشعة السماء الملائكية.. تمتمت في سزاجة مع نفسي:-

* (هل تغيرت اللغة العربية لتُختصر في حروف كلمة» أبا..أبا ..؟ أم هذا دعاء أنا حديث العهد به؟ ..أم هي طقوس جديدة ينتهجها بعض المصريين بعفو الخاطر بجهل منهم ؟!).

نفضت الفكرة من رأسي؛ لأنها غير منطقية ..وعندما طال شرودي..وتلقلقت هواجسي بين جوانبي..شعرت بيد المصري تربت عليّ في حنو..فأحسست بزفزفة

الرياح تزداد ..كنت علي وشك أن أسبل جفنيّ؛ لأُصغي إلى لحن سماوي أخّاذ لمن يبتهل بالدعاء خلفي وأمامي .. وانقضت اللحظة ..

وبصوت رخيم مس أذنيّ مساً رقيقا قال الرجل وهو يربت علي كتفيَ:-

*لا تشغل بالك يا سيدي ..فهذا المتعلق بأستار الكعبة ..والمردد:-((أبا..أبا...)

انه أخرس!! !!

وهنا سقط فكي وتجمد.. فأطلت النظر إلى هذا الأخرس ..كان ظهره عارياً .. وشعره الطويل يتهدل خلفه.. سار في كلماته وهو نشوان لا يدري ما حوله.

(٢)

نشر الليل رواقه علي خيام (عرفة)..في تلك الأثناء, كان الفجر يلقي وشاحاً رمادياً علي الجبال حولنا..وتكاثفت السُحب في السماء وتلبدت شأنها كل شتاء..وقتها كان أستاذي يرقد جواري يغط في نوم عميق .. وبينما الأرض تكمل دورتها حول نفسها.. تزاحمت الدموع في قلبي .. وتدفق الدم الحار إلى رأسي يغلي كمرجل..فكبحت جماح نفسي, وعادت الابتسامة ترتسم علي وجهي..وأصبحت منفوشاً كالديك..واقتربت من أستاذي أهزه هزات شديدة , فنهض منزعجاً ينفض بقايا النوم من عينيه..راح يحملق في وجهي الذي تشرب بحمرة زائدة:-

*ماذا دهاك يا دكتور صفوت؟!

أجبت وكأني لم أسمعه ..وبصري معلق بجبال عرفة المباركة ..هنا يا الله وفي أرضك المقدسة ..

أشهدك بجلال وجهك الكريم بأن أخرج كل ما جمعته في سنوات الغربة ,من دولارات وريالات وجنيهات و.... أخرجه لوجهك الكريم : لو عرفت بماذا يدعو هذا الأخرس وهو معلق بأستار الكعبة في عبارته :-

(أبا..أبا..أبا...!!!) .

obeikandl.com

حسنة سوداء

(١)

يوم الجمعة .. في الصباح الباكر..

فتحت عيني متوجساً ، بعد نوم مضطرب .. اقترب مني طفلي الصغير (حسام) البالغ من العمر أربعة سنوات .. معه كنت أشعر بشلال من المشاعر الدفاقة .. يده (النونو) تلاعب شاربي .. تتحسس (شامة سوداء) ، كانت بالقرب من أنفي .. نطق بدوافع لا شعورية ..

*بابا أنت هتدخل الجنة !!.

ابتسمت .. ولم أتكلم .. عاد يتحسس وجهي

*هتدخل الجنة علشان عندك حسنة سوداء في وشك !!.

لم أكن بطبعي أجيب .. غمرني دفئ المكان .. فقبلته....

كان بالكاد يمد جسده نحوي ويلف احدي يديه متمتماً عبارات بشفاه مرتجفة ..

(٢)

في اليوم التالي ..

عندما انفتح الباب نفثت الشقة رائحة زمن قديم ، وأنفاسا محبوسة .. بينما تقدم

obeikandl.com

مني (حسام) بتؤدة ، وقال بسذاجة طفل:

*باب .. أنا عايز حسنة سوداء في ركبتي علشان ادخل الجنة زيك ..

* غداً ستكون عندك حسنة يا حبيبي ..

وضممته إلي صدري ، فرأيت جسداً صغيراً لم ينضج عقله بعد ..

(٣)

هكذا أعلن (حسام) فرحته .. عندما استيقظ ووجدها في ركبته .. راح يتنطط في الشارع .. حتى روحه البريئة أخذت ترفرف معه .. تكاد تنطلق من جسده يستعرضها وسط هرج وزحمة أطفال الشارع..

*عندي حسنة سوداء .. ربنا هيد خلني الجنة !!.

(٤)

كان ضوء القمر يفرش السماء .. عندما وقفت ،انظر من النافذة لمحت النور المبهج يشق طريقه مع انحسار الليل .. كان (حسام) يرفس الهواء وسط رفاقه في ضوء القمر.. تخرج من البيت المقابل لبيتنا سيدة في العقد الرابع من عمرها مغطية رأسها بشال (كموني) ينسدل علي صدرها .. يلمحها (حسام) .. فيرتمي في حضنها ..

* عمه .. عمه .. عمه ..

لكن نباح الكلاب الذي كان يتردد داخل الحارة وضع حداً للبهجة .. كانت أبواب البيوت مفتوحة لا تنغلق إلا في ساعات الليل الأخيرة ..

(٥)

كانت عيناي تتابع السحب المتحركة في تثاقل ، نطق لساني :

* إن الله وان إليه راجعون

نعم تذكرت(أم حسام) رحمها الله .. وتذكرت يدي وهي ترسم بقلم (الفولمستر) الحسنة السوداء لـ (حسام) وهو غارقاً في النوم ....

(٦)

مع صفار الشمس .. عدت من عملي .. يدي تقبض علي الحقيبة (السامسونيت) .. قال (حسام) وهو يلهث من اللعب مع الأطفال:

*حمد الله علي السلامة يا بابا ..

حملته بحنو .. قبلته .. كان متصبباً بعرق مترب أعطيته كيس (الشبيسي) بعفوية وتلقائية عبر عن مشاعره الندية .

(٧)

دخلت معه دورة المياه .. خلعتُ ملابسه الداخلية و(ترينك) جديد .. وقف (حسام) عارياً يصرخ بحرقة عندما امتلأ وجه برغاوي الصابون .. فأخذت أصب علي رأسه الماء وهو يقف علي كرسي خشبي صغير.. نظر لأسفل .. فصمت علي غرة .. وعاد يهمهم بالبكاء .. بكاء مكتوم .. هز رأسه .. كانت أعضاءه ترتعد وهي تتقاطر بالماء ..

في هذه اللحظة تمنيت أن أسافر بمفردي لأعرف سر بكاء حبيبي (حسام) .. نشفت جسده (بغياره المقلوع) .. لازال يبكي بصوت مكتوم .. ورأسه منكسة لأسفل .. لم أدرك الموقف .. رحت اربت علي كتفه الصغير.. كان مخاط انفه يتدلى دون أن يسقط

تنفست بعمق شديد ، عندما لمحت يده الصغيرة تتحرك علي ركبته تبحث عن شيء .. نعم لقد مُحيت (الحسنة السوداء) .. محاها الماء الساخن والصابون .. عاد يمسح مخاط انفه .. وصوته يشهق .. ويشهق ..

* آهه يا سي بابا .. الحسنة مشت .. فهل أدخل الجنة الآن ؟!

تعلق بصري بسقف البيت .. عروقه خشب بارز اسود من الدخان وسلك مدلي ليعلق بها (الناموسية) .. أومأت له برأسي .. ويدي تدغدغه تحت إبطه .

* سندخل الجنة يا حسام بأذن الله ورحمته !!!!.

لحظتها .. تنفس (حسام) بعمق.. كأنه يتنفس لأول مرة منذ سنوات .. وابتسم .

obeikandl.com

مراكب الأيمان

(١)

ارتفعت الشمس إلي كبد السماء..فراح (إبراهيم بن الأدهم) يسير حاجاً إلي بيت الله الحرام.. كان يمشي في الصحراء..المدى أمامه فسيح..وكثبان رملية كثيفة تصعّب عليه السير..يتقدم برجلين بطيئتين.. يتوكأ علي فرع شجرة قديم ..كان القيظ يشتد, وخيوط الصهد تتصاعد متعرجة ,فتهز الرؤية.. رفع ابن الأدهم رأسه الذي اشتعل شيباً, كان العرق ينزل من مسامه جميعاً, يرقد عند منابت الشعر الأشعث.. اتسعت بقعة الظل أمامه, لتسقط علي الأرض الرملية الحارقة.. تحلّب ريقه الذي جف.. وراح يتفرس أصل الظل القادم..فإذا أعرابي علي ناقة تحمل متاعاً كثيراً..

قال الأعرابي : يا شيخ.. إلي أين؟!

فقال إبراهيم: إلي بيت الله الحرام.

فنزل الأعرابي عن ناقته وقد زكمه هواء الصحراء المترب والمشبع برطوبة خانقة..

كأنك مجنون ياهذا !! ..لا أري لك مركباً ولا زاد.. والسفر طويل..وفوق هذا أنت رجل عجوز!

فأجاب إبراهيم مبتسماً:

ياأخي لي مراكب ولكنك لا تراها !

فقال الأعرابي: وأين هي؟!

صمت إبراهيم بن الأدهم ثم أغمض عينه نصف اغماضة .. ورفع رأسه للسماء.. تداخلت النسائم الطرية مع حمية الشمس.. وقال مخاطباً الأعرابي: إذا نزلت عليّ

بلية ..ركبت مراكب الصبر, و إذا نزلت عليّ نعمة ركبت مراكب الشكر,وإذا نزل بي القضاء ركبت مراكب الرضا, وإذا دعتني نفسي إلي شيء من حرمات الله , نهرتها بقولي: يانفس ما بقي من العمر أقل مما مضي..

صمت الأعرابي.. وتجمدت سحنته.. وترك خطام ناقته, وراح يشق دروب الصحراء الثعبانية هائماً علي وجهه..كان العرق الغزير يتفصد من كل خلايا جسده...

(٢)

حين زحف الغروب بغبشه علي الصحراء مترامية الأطراف ..وولج الليل البهيم يتوغل ويمتد..ويرسخ جذوره وسلطانه بين النباتات الشيطانية وبين زواحف البادية.. كان الأعرابي يخطو خطوات وئيدة..يرفل في أسمال بالية, تهدلت من خلفه..كانت رعشة طراوة الصحراء وفوح أبخرة الرمال تهزه هزاً عنيفاً..

وأخذ يصرخ ..ويصرخ..يتردد صدي صوته بين الجبال وبين الكثبان الرملية.كان الصوت .يمزق سواد الليل الكالح الذي طال وامتد..

* يا إبراهيم ..سر بإذن الله .. فأنت الراكب وأنا الراجل (الماشي)..

obeikandl.com

أشياء في ذاكرة الوجوه

(١)

فلم يكن غريباً أن يحدث ما حدث .. وليس سهلاً عليه أن يتذكر ما جري – بالضبط – طوال ليلة كاملة .. لكنه حاول دون وعي وبكل ما تبقي من قوة مفاصلة ضغط علي « الفرامل « ؛ ليقف .. كانت ليلة تميل إلي البرودة بعض الشيء ، والطريق خالية إلا من بعض الأشجار الواقفة في خنوع ، راح ينظر في المرآة الجانبية للسيارة وعيناه تتحسس الواقف خلفه في توتر ، وبحركة عفوية وقف بجوار الرجل .. رآه كهلاً في العقد الرابع من عمره ، عيناه مطمورتان ، وجبينه بارز كمشربية .. كان بصره يفتش السيارة ، وكأنه يبحث عن شيء بداخلها .. قاطعة صوت السائق بفتور:

* علي فين يا أفندي؟

تكلم الرجل وقد تدلي شاربه ، وتراقص حول فمٍ به أطلال أسنان ..

* المقطم يا ريس .

صمت قليلاً قبل أن يركب ..

* وسأدفع جنيهين لا غيرهم ولا دونهم . هههه !

هز السائق رأسه وهو يتنخم .. قال بانفعال :

* نعمة وفضل !(بصق علي الإسفلت) .. اركب يا سيدي .

ارتاب الرجل وتصرف علي طبيعته .. ثم انطوي علي نفسه .. لا يري أي شيء علي الإطلاق.

إلا الظلمة .. جن جنونه وهو محاصر بالقلق ، وتسرب الفكر إلي جمجمته المعروقة .. كلما تصافحت الأكف الباردة ، صخب صوت ماتور السيارة علي هواجسه ، وظهرت التماعة عينيه الغامضة

* لقد وافق هذا السائق علي الأجرة الصغيرة .. إن المسألة فيها شيء .. أخ .. لربما أراد هذا الغريب أن يستولي علي ما معي ، من نقود وساعتي الذهبية

وسرت رعشة في أنامله الممسكة بشنطة صغيرة سوداء ..

* أنا أكبر مغفل ، يعني كان لازم اركب مع هذا بالذات .. يا سابل الستريا رب..

وأخذ يتحسس محتويات الشنطة دون أن ينقل بصره عن وجه السائق الذي يهتز في المرآة .. ويحملق فيه دون أن يتحكم في حركة بدنه اللاإرادية .

تجاوزت السيارة لافته مضيئة مكتوب عليها (منحي خطر بعد ١٠٠ متر) نظر السائق علي ضوئها في ساعته ، كانت قد تجاوزت الثامنة بقليل .. من نافذة السيارة الحقول تجري في رتابة علي غير العادة ، وكان السائق من أن لآخر يسترق النظر إلي الجالس خلفه ، أراد أن يطفي علي الوقت بعض الأمان ، فبدأ بسؤاله للرجل :

٣ : أنت من المقطم يا أفندي .. ولا من نواحيها ؟

٤ : من المقطم .. (ثم صمت وهو يباغته ببعض النظرات)

ثم عادت رأس الرجل ترج كالبيض الفسد .. يتخبط الشك مع الخوف ..

* إن السائق لص محترف .. يسأل عن مكان إقامتي الفعلي حتى يأخذني إلي مكان آخر بعيد ، وينفذ عملته .. لطفك يا رب .. طب هل سيكتفي بسرقتي ، أم ..... ؟!

كان الطريق الإسفلتي يضوي أحيانا من بعض أعمدة الإنارة المتفاوتة ، وبدا الشجر الكثيف علي البعد مهيباً .. فرد السائق ظهره وأخذ نفساً عميقاً وغمغم مع نفسه ..

* إنها ليلة سوداء من أولها!

تفحص الجالس خلفه عبر المرآة ، فلمح عينين جامدتين ..

* أن ملامح هذا الرجل تبدوا شاذة ربما يعشق تعذيب ضحاياه قبل قتلهم .. يعني

كانت ناقصة التوصيلة الفقردي؟!

صرخ الرجل الكهل وهو يقبض علي كتفي السائق « حاااااااااسب «.. ارتبك السائق ، وحاول أن يتفادى عربة اللوري .. ثم دفن أنفه بين سبابته وإبهامه ،يتخلص من المخاط بسحبة واحدة .. وصمت

(٢)

فجأة التقط السائق والرجل صورة مهتزة لشخص بعيد كشفته الإضاءة .. يقف بجوار كوم من طوب « طفلي» ,, كان يلوح بيده ببطء بعد لحظات توقفت السيارة بجواره .. كان علي يسار السائق الذي بادره بسؤاله ..

* علي فين يا بلدينا؟

كان الرجل يبدو من الأرياف ، يرفل في جلباب واسع ، ورأسه تحمل عمامة عملاقة ، قال ويديه يتناولا (بقجة) كانت بجواره .

* الدراسة يا ريس والله جوام أنا مستعجل !!

قال السائق ويده تقبض علي الأجرة منه ..

* ربنا يمنع الموانع يا حاج!

(٣)

السائق يشعر بوجود قلق بجواره ومن خلفه ، يكفيه ما يلمحه ليدلل به علي ما يلحظه .. وعاد الصمت يفرش السنتمترات بينهم ..

السائق: آهه كملت .. أكيد هذا الرجل صاحب البقجة متخفياً في جلبابه هو الطرف الثاني المعاون للرجل الجالس خلف .. أتاريه بطل هز من ساعة ما ركب أخينا المقطف!!.

صاحب الشنطة: الرجل الصعيدي هو سنيد السائق ، ليكون القضاء علي وسرقتي شيئاً سهلاً .. داقن الدور أبو الكلب مع ابن ....

صاحب البقجة: بالسرعة دي علمت عائلة ..(الحوارسه) بمكاني اللي لا بد فيد من

obeikandi.com

سنين ، وباعتين لي جحشين ذي البيبان يخلصوا علي .. منك لله يا اللي كنت السبب .. لطفك يا رب «

(٤)

كان الليل قد انتصف .. لم يعد يرو السماء بوضوح ،يسود صراع صامت بينهم .. يتململ الجالس من الخلف .. فتحرك صاحب البقجة ، وكأنه يتأهب لفتح باب السيارة .. فيضطرب السائق ، ويعبث بيده اليمني في مفاتيح الراديو ، فيوش الصوت ثم تجمدت العيون أمامهم لعشرة من الرجال أشاروا إليهم وهم يسدون الطريق .. أقدامهم تخبط علي الإسفلت بحركة مريبة وتوقفت السيارة عنوه .. سرت في أبدان الثلاثة رجفة .. كانوا العشرة منتشرين وموزعين حول السيارة ، تلمع (سناكي) بنادقهم في ضوء شارد جاء من بناية غير قريبة .. وتقدم أحدهم وهو ينفذ التعليمات من رجل ملثم بصوته الخشن « اربطهم بحبل واحد ، بعد ما تنضف اللي معاهم ...»

وبعد دقائق .. فر الرجال خلف زعيمهم .. وابتلعتهم العتمة .. والأشجار المتشابكة .. راحت وجوه الثلاثة تتحرك ببطء وهم مكبلين في حبل واحد .. العيون تتصافح لأول مرة عن قرب ثم

انطلقت ضحكاتهم القوية في لحظة واحدة ، فكادت أن تفك وثاقهم ...

هاتف من بعيد

ذات مساء.. أحاطت بي الهموم..أحسست بشيء ثقيل يقبع فوق صدري .. يهشم ضلوعي..ففتحت شيش النافذة.. كان القمرُ محنوقاً..وأشباح المقابر- القريبة من دارنا- تتنطط .. سمعت صوته الزاعق..

- الجوع كافريا خضر!

- نحن طعامهم(صمت قليلاً)هن مؤمنات!....(مقاطعة)

- جاعت أرحامهن.. وجفت نهودهن.. فاستخرجوا منهن الرجال ..

(مقاطعة)

- هن لسن بحاجة إلي رجال .. بل أرادوا (مفاتيح المدينة) !

obeikandl.com

obeikandl.com

رؤيــة

لمَّا جاء الصباح الباكر، فاح الخبزُ، وارتجت بيوتُ النجعِ كالبيض الفاسد ، وانتشر القلقُ والرعبُ، وراح القرويون يتمتمون علي المقهى وفي وابور الطاحين، وفي المسجد.. وتعالت الأصوات، تجأر:

- إن الكبش مريض..مريض مرض الموت!

-لا يأكل منذ يومين.

- يُقال أن بوله محبوس.. ،ويصرح طوال الليل..

- ربنا يتولاه ، ويُصلح حالنا وحاله.

- الله يكحمه.. هذا ذنب كل بنات النجع والنساء والأرامل.

فقررت أن أعود في مساء هذا اليوم بأهداب الدروب الثعبانية، حين تُوزع أخبار الموتى !

obeikandl.com

أسـعد يـوم

(1)

سألت عن مرشد طريق ، فدلوني علي رجل يقيم بحي (الغياتية) ، عندما قابلته ، طالعني وجهه بوضوح ، وتبين لي أنه كفيف .. تمتمت مع نفسي وأنا أقلب بصري في هيئته :

* إنه يريد مرشداً..

وتركته .....

(2)

يوم السوق في النهار، والحارة تموج بأهلها ، زلت قدمي – بعد تفكير طويل – لزيارته .. تحسست الطريق .. جلست في ركن المقهى الذي يقع أمام داره ..

كانت داره مهدما ، نُزعة منه الأبواب والنوافذ ، ساقتني قدماي إليه .. دنا مني .. سمعت صوته لأول مرة يناديني باسمي دون سابق علم به :

* هيا يا أيمن أفندي .. فيومنا طويل ..

تأبطت ذارعه .. وسرعان ما تآنسنا .. تخطينا طريق السوق القديم بعد(شارع القطب) .. سألته بإشفاق :

*ما هو اسعد يوم في حياتك يا سيدنا ؟

أجابني بوجه صارم .

* اسعد يوم في حياتي .. عندما تمتلئ معدتي بما لذ وطاب ، من خبزوثريد .. ومعتق

obeikandl.com

الشراب .. يا بني آدم !!

ثم ضحك .. كان في السماء زرقة صافية تميل إلي البياض ، عندما كنت أروح جيئة وذهاباً في حدود الفراغ الذي أقف في منتصفة فباغته بسؤالي :

* لما هذا المنطق الجائع يا سيدنا ؟!

رد بأنفة وهو يجذب ذراع من ذراعي:

* عندما تملئ معدتي .. ترتاح أقدامي من السير خلف لقمة العيش ويكون هذا أسعد يوم في حياتي .. آه !!

(أخذ نفساً عميقا) .. ثم راح يبتعد مزمجراً ، فسقط ظله علي صفحة الإسفلت فخر صريعاً وبصره معلق بالسماء .. كان فمه يغمغم :

* آن للزمن الجائع أن يتضور جوعاً !!

..... ثم مات ....

obeikandl.com

مسافر

قلت لأمي وزوجتي : الحل في السفر..

بكت أمي ، وفرحت زوجتي .. تركت عصفوري الصغير الذي لم يتم عامه الأول .. مضيت محلقاً في أتوبيس الخدمة العامة إلي المطار.. وصلت إلي صالة المسافرين ، جلست علي اقرب كرسي (بلاستيكي) بعد أن أنهكني التعب .. في هذه اللحظة .. تعتريني دقات القلق ، تلوذ بصدري المرتبك . عفرت سيجارة وأخذت انفخ الدخان في ضيق .. كنت احلم دائماً بذلك الأمل الذي لا ينتهي ولا يتبدد .. استيقظت من غفلتي علي منظر غريب ، لم أعهده من قبل .. بعض الجماجم الصغيرة جداً ملقاة علي الكراسي الخالية .. سقط فكي وتجمد .. نفضت هذا المنظر من رأسي ورحت أكمل تعفير السيجارة .. لسعتني في أناملي .. القيتها في طفاية السجائر الأسطوانية في قرف .. بعد قليل.. كان الليلُ قد أرخي أستاره السوداء .. خرجت جموع المسافرين ترتع وتمرح وكأنهم أشباح تهيم في البرية ..خرجنا .. أصغيتُ إلي(الميكروفون) المعلق في برج مراقبة الطيران ،كان يردد عبارات آلية حزينة:

* والآن – أيها السادة – ستخرج جنازة حامية جداً لشخص مجهول الهوية جداً !!..

رددها عدة مرات .. ثم ختمها بصون معدني .. الآن .. الآن.. الآن .... الآن.

خرجت الجنازة .. كانت تحمل جثماني .. بصقت علي السيراميك النظيف .. مسحت شاربي أتفحص المنظركانت أمي تهرول خلف الجنازة ..دوت صرختها في أركان الصالة .. تبعها صوت ارتطام .. وراحت تصرخ وتخرج حفنات تراب من حجرها وتحثوها فوق رأسها.. ويأتي من المجاهل صوت زوجتي ، ينادي البشر أن يهبو ليقدموا الفداء والقرابين ..

وتراقصت النيران رقصة النهاية.. كانت زوجتي – كعادتها- لا تفارقها الفرحة .. لكنها الآن تقهقه كغانية .. عندما اقترب منها ذلك المسخ واخذ يعبث بخنادق وهضاب وأعشاب جسدها .. ثم لعق مجري النهر.. ألصقت زوجتي يديها بقرب نحرها وأطلقت صيحة مدوية .. بينما تناهي إلي سمعي صوت انهيار المطروهو يزداد حدة .. فانتهيت وأنا غارقاً في عرقي ورعبي !!..

obeikandl.com

سريع القذف

(1)

في البدء لم انتبه لوجودها .. وجدتها منكمشة علي غير عادتها بجوار السرير.. حاولت أن استفسر عم حدث لها ، كانت تخرج أنفاسها الأخيرة .. وهنا تسلط الشيطان علي فكري .. نعم .. ليس غيره .. هو الذي تحرش بها (أخي الأصغر)

* أيحسب أنني كبرت في السن فانفرد بها!..

اقتربت منها لكن جميع محاولاتي معها باءت بالفشل كانت منعتني أن أتكلم معها .. تزداد فرحتي عندما المحها تقفز أمامي رغم انتفاخ بطنها المعتاد .. ساعتها كنت أشعر بسعادة وقشعريرة تتملك كل جسدي ،هي ملكي أنا.. لم اسمع نصيحة الطبيب عندما أشار وبإصرار أن أتركها.. غمغمت:

* هه أنه طبيب معتوه كيف أترك عمري .. أنا لا أتخيل ذلك أبداً .. حتى لو تحركت علي عصا خشبية ..

عدت انظر إليها وهي منكمشة .. فتملكني الغيظ .. وقررت الانتقام منه .. لحظتها – مع غروب الشمس – كانت البيوت قد لفظت كل محتوياتها الآدمية إلي الشارع أصاب أمي الفزع عندما علمت بما حدث ، قالت بصوت رؤوم:

* لا تخرج يا ولدي فأنت مجروح .. لم يلتئم العظم بعد فلا تزيد الطينة بلة .. أحمد أحمد ..

غمغمت في حنق :

* إنه ارعن يتحين فرصة غيابي يدمر كل شيء جميل .. سأقطع دابر هذا الملعون ..

ورميت العصا الخشبية التي أتوكأ عليها .. فهي تشعرني بالعجز

(2)

سمعت مدرس التربية الرياضية .. يتحدث مع مدير إدارة التعليم الابتدائي ، بعد أن حصلنا علي دوري المدارس في الكرة الطائرة :

* أحمد ولد (سريع القذف) لولاه ما فزنا بالدوري:

اختلج صدري فرحاً ويدي تضم الكرة الغير منكمشة !!..

obeikandl.com

حـالة عـشق

(1)

هكذا كنت انتظر تلك اللحظة التاريخية ، نعم كان ذلك صعباً للغاية أن أكون ضمن وفد المستقبلين، ابتسمت عندما لمحته يدقق في وجهي ، ورفعت بصري إليه ، فخفق قلبي .. وجدته يقف بجوار شجرة (البنسسانا).. لم أصدق نفسي وأنا جالس إليه في حضرته نطق ولأول مرة أسمع صوته عن قرب .. قال لي ويده تربت علي كتفي :

* كن طبيعياً .. ابتسم ولا تغلق فمك ..

ثم استطرد هامساً :

* نعم .. نعم .. هكذا ..

.. ثم قبضت روحي !!.

(2)

هتف مشيعو نعشي..

* واحدووووه !!!

* لا إله إلا الله

قالها جمع غفير من المشيعين...

obeikandl.com

(3)

بعد دفني بدقائق .. جاءني صوت دودة القبر، توجه إلي الكلام:

* لحمك مر.. جلدك مدبوغ .. وعضوك مبتور !

تمتمت وأنا أمزق ستائركفني .. وأربطة التحنيط .. وانفض التراب عن جيفتي :

*كل هذا يا سيدة الأرض لأنني همت علي وجهي حاملاً طعنة غدربين حنايا أوردتي ، وكنت الشاهد الوحيد علي عُرس الجماجم..!!.

(4)

اندلعت في بطني ثورة ، وأصابني (ظراط) متكرر ، و شيء مرغريب يسري في حلقي تشاغلت عنه بالهدوء ، وسماع إيقاع الخطو الرتيب الذي جاء إثرقدوم سرب من الدود مختلف الألوان والإحجام .. ارتفع صوت واحدة منهم .. وجدت نفسي أغير طقوس صمتي وأنا اسمع آخركلماتها :

* أنت لست أول من كابد اللوعة بعد الهجران !!.

obeikandl.com

مواسم ما بعد العشق

نظرت إلى المرآة .. قد يكون وعيها قليلاً .. فرأت مذبحة .. وجه شاحب وغراب يحلق علي تضاريسها .. جميع المحاولات باءت بالفشل راحت تقلب صفحات مجلة (الكواكب) .. كانت صورها الجميلة تملأ أركان المجلة بجوار اسم فيلمها الأخير(حواء تحت الفانوس).

تحسست وجهها في ذعر .. ثم ضربت بقبضتها – المعروقة – سطح المرآة ، فتقيأت .. فلما أقبل الليل ..كانت ترتعش بجوار المدفأة المشتعلة وراحت تغمغم بفم سقط ركنيه .. تحملق في الزجاج المكسور الذي فرش الأرض :

* أوباش .. أوباش .. الجميع بلا ذاكرة !!.

obeikandl.com

obeikandl.com

أصداء لقاء صامت

هكذا منذ طفولته البريئة كان يعشق الموسيقي .. يشارك في طابور الصباح .. ويعزف بعفو الخاطر

حتى تدمع عيناه .. وبعد مرورسنوات طويلة ظلت الرياح القوية تعبث فيه تدخل من فمه .. تنزف أفراحاً وتخرج من عظام حوضه كشلال .. أعضاءه تصفق في حبور .. (لقد مات في الفلاة ، ولم يدفن لمدة عامين !!) .

obeikandl.com

obeikandl.com

من أجل ساحبة وجع

في ذروة العُباب .. قررت – بمحض إرادتي – أن ارتشف زجاجة من معتق الشراب .. ثم ارحل في ظل القطارات وفي أثناء الخطو المتعثر.. وقفت فأخرجت لحبيبتي صورة ملونة كانت وسط أوراق النقود .. غطستُها في الكأس الفارغ في يدي .. هزني الضحك وسعلت بشدة .. عندما رأيت الثمل يهز أرداف الصورة وينهديها في آنٍ واحد !!.

obeikandl.com

obeikandl.com

احضر فورا

(١)

تهدل الفم العجوز لعامل (التلغراف)، كان وجهه أسمر غامق، وعيناه متقدتين، سلمني بيد ه – المرتعشة المعروقة -

برقية تلغرافية، بها كلمات قليلة، منطوقها :

(احضر فوراً لأمر عاجل).

(٢)

امتلأ سرادق عزاء أبي بالمعزين .. وقفوا أمامي ، مدوا أيديهم بالعزاء ، وأنا أتمتم بكلمات تنم عن حزن دفين :

..(شكر الله سعيكم).

(٣)

بعد ما يقرب من شهر..

سلمني – نفس العجوز - برقية تلغرافية...

..(احضر فوراً لأمر عاجل).

فانتابني شعور بالدوار، ووجدتني لا استطيع تبين ملامح هذا العجوز الشؤم ، وهو يقف أمامي .. كنت - فقط – أسمع تردد أنفاسه المتهدجة، ووقع خطوه الرتيب علي

obeikandl.com

الدرج الرخامي الحلزوني..

« طق.. طق.. طق.. «

(٤)

كان المشهد يتأرجح بين الوهج والظلام ، عندما استقبلتني أمي بوجهها الصبوح ، وطوقني أخي وأختي بحضن دافئ ، تنفست الصعداء ، وقرهائجي وسكن ..

(٥)

قالت لي أمي: ضابط المباحث بالمركز طلبك وأكد علي ذلك اليوم، لأمرهام، لا نعلمه...

(٦)

عند مدخل مركز الشرطة العتيق ، بأبوابه ونوافذه وتنداته المائلة .. أحسست بشيء يجذبني إلي الأرض ، ولكنني تماسكت ، وقفت ساهماً أحملق في النباتات الشيطانية التي ملأت الطرقة الترابية ، عندما تنامي إلي سمعي – من ضابط المباحث - أن الجثة المزقة التي دفناها (الشهر اللي فات)، ليست جثة أبي ولكنها تشبهها !!!

(٧)

الليل ساكن، والقرية نائمة، والظلام..

(يبرك عليها يُفطِّسها)..

ولما شارفت علي مداخلها ، ودروبها الثعبانية ، كان الحشيش المتطفل يغطي التربة ، وأكوام السباخ ترقد علي رأس الغيطان ، رحت أحاول أن احدد مسارات الطريق واتجاهاته ، وعلي ضوء المشاعل البعيدة ، كنت أري عيون الأشباح تبرق في الظلام ، كان الليل ينشر رواقه ، ولفتني العاصفة الهوجاء ، ولاح لي النخيل يُطوق بيوت القرية , والغبار الشديد قد حجب- أمامي - الرؤية تماماً ، ابتسمت في مرارة ، لحظتها ، وجدته أمامي ، عند الساقية المهجورة القبلية ، حملقت في هيئته ، كان طيفاً لرجلٍ طاعن السن ، يرفل في رداء (كَستور مقلّم) ، لحيته نابتة ، يرقد علي رأسه المدبوغة فودين اشتعل الشيب فيهما ، تزاحمت الروية في عيني ، لحظتها ، كان الفجر يحاول أن يغسل بيوت الفلاحين بالنور، والليل ينسحب بنقيقه وصريره ،أحسست بيده

تقبض علي ذراعي في حنوٍ، سرت في جسمي رعشة ، أحاول أن أرتق ذاكرتي ، ابتسمت في وجهه ، وكدت أن أبكي ، كنت أشعر بهواء رطب ينبعث من خلفي ، ملامحه

الساكنة في خطوط وجهه كانت تغير تشكيل صفحة سحنته إلي زوايا حادة.... نعم هو بشحمه ولحمه.. وجدت الدم يتدفق في عروقي من جديد، عندما طن صوته في أذني وهو يقرأ

ما أخرجه من حقيبته الجلدية عليها قماشة بيضاوية متهدلة ك(بادج) ، مدون عليها..

(مكتب تلغراف شُبرا) :

..(احضر فوراً لأمر عاجل)..

obeikandl.com

obeikandl.com

يوميات في حي شبرا

(١)

في حي شبرا الهادئ ، وفي بناية عملاقة بالدور الخامس علي مقربة من جمعية

(كاريتاس لتعليم الكبار) ، كان شهر العسل ينتصف بداخل غرفة النوم... تلمح الشمس تتثاءب تهتز في خجل، تحس بضعف أشعتها رويداً رويداً.. خيوطها الذهبية تلامس ضلفة الشباك الموارب.. يتعانقا.. وبعد قليل من الوقت ، أخذت الوَّهاجة تلملم أطراف أشعتها استعداداً للرحيل..... كانت (هي) قد صفت شعرها علي طريقة نساء الفرنجة، وصنعت لها الماشطة (الخوجاية) عمامة مربوطة بشاشات ملونة، وعقصت بقية شعرها الفاحم....

ودلت منه خصلات فرادي ومتجمعة علي أذنيها، وجعلتها تدهن جسدها بالطيب وعطر القرنفل، وغطست الشفاه بـ(الروج) الأحمر القاني، وكحلت لها عينيها بالكحل الدمشقي، وارتدت جميل الثياب، وقد جمع أسفل نهديها بحزام من الخرز تدلي طرفاه علي فخذيها، فوق سروال من نفس القماش وبعد لحظات.. كانت العروس تتمدد علي سرير وثير، ترتشف الحب عبر أثير النظرات ، منه ، فأومأت إليه وهي مغطاة بملاءة بيضاء - مشيرة بأصبعها، تستمهله ، ولحظة اللقاء بها،بدا ثابتاً، راسخاً، قسماته هي التي اختلجت مسفرة عن رغبة أنثي، قالت وقد لفها الشوق:

- الحقيقة التي لن ولم أعد أستطع أن أخفيها.. إني أعشقك..»

وهنا، استمر (هو) يتطلع إليها هادئاً، مبتسماً، غير عابئ بالهواء الذي أخذ يلفح نصفه السفلي المشدود..

و أخذا يتدثرا بغطاء واحد .. يصطبغ كل شيء حولهما بلون مشمشي هادئ .. كان صوت

(أم كلثوم) يصدر من (فونوغراف) قديم .. تشدو بأغاريد حالمة.. تمزق نهايات النهار...

ولحظة العناق، وفي ذروة الاندماج، تبدل الوجع،تبدي وداً، فعندما توقت برفقته، تحت وهج مصابيح(النيون) ، فكانت تأتي من خفي الحركات، ما لم يقدر عليه الصمود أمامه اعتي الرجال، وأشدهم صبراً، ومِراساً، ولحظة بلوغها الأوج، وذروة المتعة، أطلقت صرخة نافرة، غريبة ، كانت خليطاً من حشرجة و جعيراً، من ضحك وبكاء، كل الأصوات تتداخل...تتداخل.. وتخمد..

((بعد لحظات من الأنفاس المتهدجة ، المتقطعة))

هو:

- أتحبين الأطفال يا حياتي ؟!

هي: (وقد سرحت بخيالها وتورد وجهها بحمرة الخجل :

- يارب امنحنا الذرية الصالحة ..آمين.

(٢)

يوم الجمعة .. في منتصف العمر.. في غرفة المعيشة

كان الهدوء مطبقا..مقاعد وثيرة مغطاة بمخمل مزركش و بـ(دلايات) زرقاء ، وفي وسط الغرفة تقبع طاولة مستديرة من الخشب المطعم الثمين , وفي أركانها تماثيل جميلة من العاج، أكبرهما تمثال أم تحمل طفلاً بحنو بين ذراعيها.. نهض (هو) من رخاء القيلولة الطويلة مشبعاً بالاطمئنان، بعد ارتشاف كوب كبير من (الشاي الحبر)...

أصبح (هو) في أفضل حالاته.. صاركياناً بسيطاً في غير حاجة لأحد ، ولا حتي لصوت أم كلثوم ولا صوت فريد الأطرش الذي يشبه البكاء أحياناً... يقلب عليه مواجيع الحياة..

كانت كلمات الطبيب الشهير المعالج لهما ، لا زال يطن صدها في رأسه، فترتج جمجمته في الحائط كالبيض الفاسد:

- « معذرة يا سيدي ، هي مصاريف بالفاضي ، حتي الحقن المجهري لن يأتي بنتيجة»

(٣)

جلس الزوجان معاً.. كان الرجل – بعد عودته من المقهى - يرقد خلف نظارته الطبية، يتصفح الجريدة.. ومن آن لآخر يتعلق بصره بخادم الدير العجوز وهو يقبض علي

(شقرف) ينقي الحشائش العالقة بحوض الريحان علي مقربة من البوابة الحجرية للدير ، (هو) في جلسته علي كرسي (البامبو)كان مهيباً،طويلاً كجذع النخلة ، يتقدم الرجال، متين الملامح ، راسخ النظر،

(هو) كبر قليلاً في السن ، بيد أنه يبدو صحيح البنية غير ذي علة ، ذو لحية صهباء طويلة مدببة، وترقد علي رأسه طاقية (شبيكة) ، و زوجته رجاء بدورها تنشغل بأعمال الإبرة التي تتقنها.. وبعد هدوء مميت من حولهما، تمزق أرجاء الغرفة برنين من ساعة الحائط.. تعلق بصريهما بالرنين الجميل في آن واحد؛ لمعرفة الوقت.. حدقت (هي) في زوجها بعين مشفقة .. وارتعشت يدها المعروقة .. نهضت ، واهتز من تحتها كرس

(البامبو) الصغير ، نظرت من شباك البلكونة وكأنها تنتظر قادماً عليهما.. طال غيابه.. المنزل من الخارج جميل والجو صحو.. كان يتألف من ست طوابق ، في مواجهة(الممر التجاري)، البناية محاطاً بحديقة، صغيرة أنيقة ، مسَّورة بسياج من أسياخ الحديد(الكاريتال) المدهون ببوية أقرب إلي الفضي .. الحديقة فيها أزهار البنفسج الفوَّاح كانت قد عبقت رائحة المكان...

(٤)

بعد خروج (هو) علي المعاش.. لزم البيت.. وفي يوم الجمعة ، استيقظ بعد نوم عميق.....

.. كان بصره يتعلق بالموج المتلاطم تحت سيل من الفراغ الذي تزاحم علي رأسه،

ونهش فيها عنوة..

(٥)

في اليوم التالي.....

و في شرفة المنزل ، تري الشمس تتسلل ببطء، وقد تلونت السماء بضوء السحر الضبابي ، جلسا معاً ، تناولا أقراص الضغط وسرنجات (الأنسولين).. كان نظره الضعيف يبحث بمشقة عن الكلمات في (كتاب الله)، وبأنامل مرتعشة تحركت حبات المسبحة، تردد وردا يتناغم مع صفاء السماء..

(٦)

عند الغروب ..

دقت ساعة الحائط.. (هو) يشعر بجلده يحترق بقيض الشمس اللاهب في جسده الذي صارقميئاً ، والعرق ينثال من كله ، حملق صوب البحر الراقد بداخله والمواجه لسجل حياته ، كان وجهه شاخص في رعب غير بادٍ علي تصرفاته، فتح عينيه ، حدج الزوجة بنظرة بطيئة ، غير معتادة ، ومن خلف غمامة ضبابية، تشاهد وجه عميق التجاعيد، بشرته تحمل رائحة عتيقة فوَّاحة ، راح يتمتم بود.. رغم ما ألم به من وجع، ابتسما معاً دون كلمة .. لكن الزوج نطق وقال وهو يركن يده- المعروقة - علي ركبتيه:

- يا زوجتي العزيزة ، إنني أعشق رنين ساعة الحائط!....(ثم صمت)..

هزت (هي) رأسها التي اشتعلت شيباً، فانتابها شعور بالدوار:

- لم يا حبيبي؟!

أجاب وقد طأطأ رأسه .. ونطق بفم سقط ركناه:

- رنين الساعة هو الطارق الوحيد- بعدك- الذي يشعرني أنني لازلت علي قيد الحياة ؟

تلعثمت الزوجة ، وتحلب ريقها بمرارة لا تعرف مصدرها... وصمتت..

(٧)

في هذا المساء تحديداً.. عندما احتدم النقاش، وطق الخلاف، علت الأصوات بينها،

فغمغم (هو).. يداري رعبه، وهو يحتسي فنجال القهوة:

- سيجئ ، قبلنا .. أم أبينا...!

بعدها ، جلس الزوجان علي مقربة من بعضهما .. يشد كل منها آزر أخيه ، ينظرا لباب الشقة .. ينتظرا الزائر الذي يتواصل معها من فترة طويلة .. عبر التفاصيل الحياتية..

لكنه غاب طويلاً.. كان يتشوقا اللقاء..

- « آه.. يجئ ونخلص»

.. تلك هي كلمات الزوجة التي قل أن تخرج من فيها إلا نادراً...

وبعد لحظات من الانتظار ارتفع صوت الطرقات علي الباب ..فجفلا معاً.. ثم نهضا سوياً ، يتسابقا كالصبية ، ترتسم علي وجهيهما ابتسامات عريضة .. يستند هو عليها وهي عليه.. فُتح الباب ببطء شديد.. دون أن يلمسانه .. فتراجعا خطوات وئيدة...

(٨)

..المشهد/ خارجي/..

يتسع ويضيق.. لا يتفق علي شئ بعينه..

تبسما الزوجان مرة أخري ..كان شبح الزائر يرفل في ثوب قشيب ، ينزلق علي الدرج الرخامي الحلزوني هابطاً لأسفل ، في خطو رتيب ، دون أن يخشي أحدهما أن يكون الطارق هو الزائر نفسه.. المنتظر قدومه.....

وعندما هدأ الليل ، وانصرفت الهواجس ، تحركت (هي) مذعورة ، حدَّقت في وجه زوجها، كان يرقد علي رأسه المدبوغة فودان اشتعل الشيب فيهما ، وكان (الرمص) ينثال من عينيه يصنع أخاديداً ، ومخاط أنفه يسيل ، يتسلل بين الشعيرات النابتة في شاربه الصغير، وراح يغط في نوم عميق ، يتنفس بصعوبة ، وذفراته المتتابعة تُرجف شفتيه الباذنجانية.. وبالتدقيق في خطوط وجهه الساكن العجوز ، كان قد تغَّير سمت صفحة سحنته إلي زوايا حادة...

(٩)

سري صوت المؤذن يؤذن بالفجر، وارتفع صياح الديكة في البنايات الواطئة البعيدة ، وباتت الدنيا تتمخض عن مولد يوم جديد.. وعند مدخل الشقة في البهو الصامت.....

كان (هووهي) قد فارقا الحياة ، في لحظة واحدة....!!

في حزن دفين يرتكن (الزائر) علي كرس (البامبو) غير المهتز، دلف للخارج؛ لاستكمال أعماله اليومية....لكن أين ؟؟!

..وقتها كان المشهد يتأرجح بين الوهج والظلام.. صمتٌ طويل.. وظلال الغروب تعلو الأسطح والبيوت ، سكنت حركة الطريق من المارة وعواء السيارات ، حتي الطيور المحلقة فوق أشجار

(السرو) بحي (شبرا) – وأخص المحيطة بدير (الراعي الصالح)- لاذت بالصمت أيضاً...

obeikandl.com

المحتوى

(١)-رشاد حليمة.....ص٥

(٢)-فذلكة تحت الجدران.....ص١٥

(٣)-الغرباء.....ص٢١

(٤)- تبة الشجرة.....ص٣٥

(٥)- ورقة من دفتروطن.....ص٤١

(٦)- الطريق.....ص٤٥

(٧) – حسنة سوداء.....ص٤٩

(٨)- مراكب الإيمان.....ص٥٣

(٩)- أشياء في ذاكرة الوجوه.....ص٥٥

(١٠)- هاتف من بعيد.....ص٥٩

(١١)- رؤية.....ص٦١

(١٢)-أسعد يوم.....ص٦٢

(١٣)-مسافر.....ص٦٥

(١٤) سريع القذف.....ص٦٧

(١٥)- حالة عشق.....ص٦٩

(١٦)-مواسم مابعد العشق.....ص٧١

obeikandl.com

(١٧) أصداء لقاء صامت.....ص٧٣
(١٨) من أجل سحابة وجع.....ص٧٥
١٩) احضرفورا.....ص٧٧
(٢٠) يوميات من حي شبرا... .....ص٨١

obeikandl.com